

مأزق الحرب: التأسيس لنظرية الحرب بدون نيران الأسلحة

الأستاذ الدكتور عامر مصباح

كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر 3

الملخص

إن سلسلة تطور أدوات القتال من الممكنة العسكرية، الثورة النووية، ثورة المعلومات، إلى ثورة الروبوت والسعي الحثيث للدول لتطوير وتكديس الأسلحة وكسب القوة من أجل تحقيق الأمن بالإضافة إلى الميل نحو شن الحرب وما ينجر عنها من خسائر، يولد عدم الثقة، والريبة حول نيات الآخرين؛ وقد تفهم من قبل الآخرين على أنها نشاط معادي يستدعي الرد الفعال والسريع عليه. ومنه يتأسس التفكير حول استراتيجية بديلة أي حرب بدون نيران الأسلحة مشتقة جذورها من أطروحة سان تزو القائمة على فكرة "كسب الحرب بدون قتال" كأسمى فن لإدارة الحرب مع العدو وذلك من خلال العمل على تجاوز استراتيجية القوة العسكرية البحتة المرتكزة على نيران الأسلحة لتحقيق أهداف سياسية، لتتحول إلى أداة لتدمير العناصر الوجودية للدولة والمجتمع والتي تجري في مسرح العقل والسيكولوجيا.

الكلمات المفتاحية: فن الحرب، مأزق الحرب، الدفاع بدون نيران الأسلحة، عمليات المعلومات، هزيمة استراتيجية العدو.

Abstract

The evolutionary chain of fighting tools - from military automation, nuclear revolution, information revolution to robot revolution, and the relentless pursuit of countries to develop and accumulate weapons and gain strength in order to achieve security, in addition to the tendency towards waging war and the resulting losses, engender mistrust and suspicion about others' intentions. In addition, others may perceive it as a hostile activity that involves an effective and rapid response. From it arose thinking on an alternative strategy, that is, a war without weapons fire derived from Sun Tzu's thesis based on the idea of "winning war without fighting" as the highest art of conducting war against the enemy through overriding the research military force strategy based on weapons

fire to achieve political goals. Thus, this alternative strategy turns into a tool for destroying the existential elements of the state and society that take place in the theater of mind and psychology.

keywords: The art of war, The war stalemate, Defense without weaponsfire, Information operations, Defeat enemy strategy.

المقدمة

يشترك مفهوم «مأزق الحرب» قيمته التحليلية وبنيتها الاستدلالية من التأكل الحاد للمفهمة التقليدية حول الحرب كأداة لتحقيق أهداف السياسة، أو كما حددها كلاوزفيتز Clausewitz بقوله: «فن الحرب وفي أعلى مستوياته يتحول إلى سياسة، إلا أنها سياسة تدار بخوض المعارك لا بإرسال المذكرات الدبلوماسية»⁽¹⁾؛ عندما تنشأ الحرب تستخدم الجيوش كل الأسلحة ذات القوة النارية الكبيرة التي تحت حيازتها دون قيد أو تردد، تتخطى آثارها حدود ميدان المعركة لتشمل الأصول الحيوية التي تقوم عليها دولة ومجتمع المتحاربين. إن الحرب في ظل أدوات القتال الحديثة غير معنية بحدود ميدان المعركة كما أنها تتوقف عند شرط تحقيق أهداف السياسة، وذلك بفعل التدمير المتبادل والشامل للدولة والمجتمع؛ بحيث لا يكون أي مكان أو منشأة قابلة للتحصن من نيران أسلحة الحرب. فبدلاً من أن الاستراتيجية تستخدم القوة العسكرية لتحقيق أهداف السياسة، تتحول إلى أداة لتدمير العناصر الوجودية للدولة والمجتمع المعنيين بالحرب وأيضاً أولئك الذين يصنفون ضمن فئة الأضرار الجانبية.

الوجه الأكثر تعقيداً، أن الدول لا تتوقف عن تطوير وتكديس الأسلحة والميل نحو شن الحرب، وفي نفس الوقت لا تضمن لها الحرب مجرد تحقيق أهداف السياسة وإنما تكون وسيلتها للتدمير الجزئي أو الكلي. إذا كان أنصار الواقعية الجديدة قد أكدوا على مسئولية البنية الفوضوية للنظام الدولي عن تحديد مخرجات سلوك الدولة، وفي مقدمتها المساعدة الذاتية المفترض أنها الطريقة المثلى في إشباع الحاجات الأمنية والدفاعية، إلا أن في ظل التطوير المأساوي والمتزايد لنظم القتل الجماعي، فإنها سوف تعمل باتجاه خلق وضعية قابلية التدمير الشامل للأصول الحيوية وشروط البقاء القومي للدول؛ هنا المفارقة التي تصبح فيها مقاربات الدولة تنتج الآثار المعاكسة أو المقوضة للغايات السياسية بدل خدمتها، كما تأمل الأطروحة التقليدية.

الإشكالية:

الأسئلة المركزية التي تطرح نفسها بإلحاح في ضوء التطور المأساوي لقوة نيران الأسلحة الحديثة، محددة في ما إذا التحديات المطروحة بواسطة «مأزق الحرب» سوف تؤدي بالدول إلى البحث عن مقاربات بديلة في إدارة الحرب لأغراض السياسة؟ هل سوف تتخلى الدولة عن الاعتقاد التقليدي حول الحرب كأداة للسياسة؟ هل تتراجع ثقة الدول في القوة العسكرية كأداة لعمل الاستراتيجية أو بالأحرى هل تتراجع مصداقية الحرب في إدراك صناع القرار كأداة فعالة لإنجاز أهداف السياسة؟ هل المخاطر المتوقعة أو المختبرة فعليا المترتبة عن استخدام نظم أسلحة القتل الجماعي والدمار الشامل سوف تدفع الدول نحو تقليص اعتمادها على القوة العسكرية في إشباع حاجاتها الدفاعية أو خدمة غاياتها السياسية؟ هل يشكل «مأزق الحرب» مصدرا مهما في توليد المصداقية والقيمة الحيوية لبدائل الحرب المحتملة كأداة لاستمرار السياسة؟

الفرضيات:

يمكن بلورة أرضية مناسبة للإجابة عن التساؤلات السابقة بواسطة اقتراح مجموعة من الفرضيات، المصنفة كما يلي: (1) هناك علاقة متماسكة بشكل عالي وتلازمي بين التطوير المتزايد لنظم الأسلحة ذات خاصية القتل الجماعي/الدمار الشامل وتفاقم مأزق الحرب في تعقيد العلاقات الاستراتيجية بين الدول؟ (2) كلما انتشر إبداع وتطوير الأسلحة ذات القوة النارية العالية عبر عدد كبير من الدول، تصاعدت حدة التحديات المطروحة بواسطة مأزق الحرب. (3) هناك علاقة وثيقة بين طبيعة الحرب المتجذرة في الثقافة الاستراتيجية للدول ونشوء مأزق الحرب كظاهرة مستحكمة وغير قابلة للتحكم في إدارة العمليات الاستراتيجية بين الدول. (4) كلما تفاقم مأزق الحرب في تعقيد البيئة الاستراتيجية، ازدادت قيمة ومصداقية فن إدارة الحرب بدون نيران الأسلحة.

تحديد المفاهيم

الاستراتيجية: تعددت وجهات النظر حول تعريف مفهوم الاستراتيجية، إذ أن هناك من ينظر لها كأداة، مثل كارل فون كلاوزفيتز Karl Von Clausewitz الذي يرى بأن: «الاستراتيجية هي استخدام الاشتباكات [العسكرية] من أجل [تحقيق] هدف الحرب»⁽²⁾؛ وأيضا كولن جراي Colin S. Gray الذي يرى أنها: «استخدام القوة والتهديد

بالقوة من أجل [تحقيق] أهداف السياسة. إنها الجسر الذي يربط السياسة بالقوة العسكرية»⁽³⁾؛ أو هي: «استخدام العمليات المعدّة لإحداث التأثير [السياسي] على مسار ومخرجة الحرب، [أو بمعنى آخر،] الاستراتيجية هي جسر بين القوة العسكرية والسياسة»⁽⁴⁾؛ أو هي: «الاستخدام الذي يصنع القوة ويهدد باستخدام القوة من أجل [تحقيق] أهداف السياسة...الفكرة الصارمة للاستراتيجية هي اعتبارها جسرا يربط بين عالمي السياسة و[استخدام] القوة العسكرية»⁽⁵⁾.

هناك منظور آخر يعتبر الاستراتيجية فن إنجاز أهداف السياسة بواسطة توظيف الأدوات العسكرية، يندرج ضمن هذا الإطار تعريف ألكسندر سفيشين Aleksandr A. Svechin الذي يرى أنها: «فن التحضيرات المركبة للحرب وتجميع العمليات من أجل إنجاز الهدف المطروح على القوات المسلحة بواسطة الحرب»؛ وهناك تعريف هيو ستراشن Hew Strachan الذي حدد مضمون هذا المفهوم في أنه: «فن العمل تحت ضغط الظروف الأكثر صعوبة»⁽⁶⁾.

الحرب: الحرب هي أداة السياسة في إخضاع العدو في ميدان المعركة حتى يستجيب لإرادتنا وينفذ متطلبات مصالحنا، ضمن هذا المعنى يرى كارل فون كلاوزفيتز Karl Von Clausewitz أن: «الحرب عمل من أعمال العنف تستهدف إكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا. فالحرب كعمل اجتماعي يفترض وجود إرادتين متصارعتين»⁽⁷⁾؛ أو هي: «استمرار للسياسة بوسائل أخرى». يرى بيرنال روبرت Purnell Robert أن الحرب هي: «ممارسة العنف المسلح المنظم بين الجماعات الإنسانية»؛ في حين يرى جوردن دافيد Jordan David أنها: «الوسيلة الأكثر قسرا المتاحة للدولة لتحقيق أهدافها»⁽⁸⁾ أما بالنسبة لكونن جراي Colin S. Gray، فإن الحرب هي عبارة عن عملية «شن العنف المنظم من أجل [تحقيق] الغايات السياسية»⁽⁹⁾؛ أو هي: «استخدام العنف المنظم من قبل الوحدات السياسية ضد بعضها البعض من أجل [تحقيق] الدوافع السياسية... الحرب هي سلوك سياسي يستخدم وكالة القوة»⁽¹⁰⁾. بصفة عامة واتساقا مع أهداف المقال، الحرب هي عملية إخضاع قهري أو طوعي للعدو بواسطة استخدام القوة القسرية أو اللينة من أجل تحقيق أغراض السياسة ضمن متطلبات المصالح الحيوية للدولة.

مأزق الدفاع: طُرح مفهوم «مأزق الدفاع Defense Dilemma» من قبل باري بوزان Barry Buzan، الذي يرى أن: «المأزق الدفاعي الأكثر خطورة يحدث عندما الإجراءات العسكرية الفعلية تتعارض مع الأمن، بحيث أن التحضيرات العسكرية باسم الدفاع نفسها تطرح تهديدات جدية للدولة. يمكن أن تأخذ هذه التهديدات شكل الضرر

الاقتصادي، أو الاضطرابات الاجتماعية والسياسية المسببة بواسطة التعبئة العسكرية فيما وراء حاجات الدولة أو القدرات»⁽¹¹⁾. يرى في مناسبة أخرى أنه: «لا يظهر مأزق الدفاع من ديناميكيات العلاقات بين الدول، بالرغم من أنها تساهم فيه، لكنه يظهر من طبيعة وديناميكيات الأدوات العسكرية كما هي مطوّرة ومنشورة من قبل الدول»⁽¹²⁾. شرح الجوانب العملية لهذا المفهوم بقوله: «لقد أضعفت التكنولوجيا العسكرية فكرة الدفاع الوطني بطرق عديدة. الحرمة المحلية للدولة لا يمكن أن تكون محمية ولا محتفظا بها... فككت الأسلحة الجديدة التمييز بين جبهة الوطن وجبهة الحرب.. قلصت القوة التدميرية للأسلحة فكرة الدفاع الوطني إلى المستوى السخيف، مادامت الدولة سوف تكون مدمرة بواسطة الإجراءات المطلوبة لأجل الدفاع عن نفسها»⁽¹³⁾.

مأزق الحرب: هناك عدة صياغات قابلة للتعبير عن المضمون المفاهيمي «لمأزق الحرب» كما هو مستخدم في هذا المقال، إذ يمكن أن يشير إلى فقدان الحرب قيمتها الاستراتيجية في خدمة أهداف السياسة؛ أو هو: ظهور حالة التناقض الشديد بشكل متزايد بين استمرار فكرة الحرب متأصلة في الإدراك التقليدي كأداة للسياسة، وآثارها السياسية والاجتماعية المأساوية على دولة ومجتمع الأطراف المتحاربة؛ أو هو: حالة الانسداد الاستراتيجي في عمل الحرب كأداة مناسبة لخدمة أغراض السياسة؛ أو أنه يعني: الحرب سبيل للتدمير الشامل والقتل الجماعي وليس لخدمة أهداف السياسة.

التأصيل المعرفي لمأزق الحرب: الجذر المعرفي لمفهوم «مأزق الحرب» مشتق من اقتراح جون هيرز John Herz لمفهوم «المأزق الأمني Security Dilemma» في مقاله الذي نشره في حولية «عالم السياسة» عام 1950، الذي اتخذ كوحدة تحليلية من قبل المنظرين في الواقعية/الواقعية الجديدة⁽¹⁴⁾ لغرض تطوير البنية الاستدلالية حول الوجه الواقعي للعلاقات الدولية؛ فقد طُرح لوصف الوضع المسدود الذي تصل إليه المنافسة الاستراتيجية بسبب الوقوع في شرك الخوف المتوالد بشكل متبادل، عدم الثقة، والريبة حول نيات الآخرين؛ بطريقة أخرى، فإن السعي الحثيث وراء كسب القوة من أجل تحقيق الأمن سوف يولد المخرجات العكسية التي تساهم في تصعيد قابلية العطب أكثر من زيادة القابلية الدفاعية والحصانة ضد المخاطر الأمنية، وذلك بسبب أن كل خطوة يتخذها أحد باتجاه زيادة قوته سوف تفهم من قبل الآخرين على أنها نشاط معادي يستدعي الرد الفعال والسريع عليه. وفق هذا المنظور، يصبح مفهوم «المأزق الأمني» يعني زيادة القوة العسكرية لأحد الأطراف سوف تكون طرديا على حساب أمن الآخرين. فإذا كان باري بوزان⁽¹⁵⁾ Barry Buzan يعتقد أن المأزق

الأمني ينتج عن طبيعة القوة العسكرية وطبيعة البحث عن الأمن المختزلة في تلك الشروط المادية -أو بالأحرى العسكرية- المساعدة على توفير الأمن وتأمين البقاء القومي للدولة، فإن هذا السعي سوف لا يوصل الدول إلى زيادة الأمن وإنما ينتج آثاره العكسية التي تصعد المخاوف الأمنية لدى الآخرين وتخلق الدوافع القوية للانخراط في المنافسة الأمنية المنهكة، وهكذا تتورط الدول في دائرة مغلقة من الفعل ورد الفعل وتفاعلات لولبية لإنتاج الخوف وتعزيز الريبة.

المصدر المعرفي الثاني «لمأزق الحرب» مقترح من قبل باري بوزان، اصطلح عليه «بمأزق الدفاع Defense Dilemma»، الذي يشير إلى ظهور وضعية معقدة تجمع التناقض الحاد بين الحاجة الملحة للدفاع، الرغبة الثابتة في تطوير الأسلحة الأكثر تدميراً، وقابلية تدمير الوجود السياسي والاجتماعي للدولة في حالة الاشتباك مع الأطراف الدولية فوق حقل المعركة. من الناحية المنهجية، طُرح «مأزق الدفاع» للإجابة عن مجموعة من الأسئلة حول شؤون الدفاع من قبيل: (1) هل الدول آمنة وهل تشعر حقيقة بذلك؟ (2) ما هي السياسات الأمنية والاستراتيجية العسكرية المطلوبة لتحقيق أو المحافظة على الأمن القومي؟ (3) ما هي طبيعة الاستراتيجيات الأمنية التي يجب تصميمها للحفاظ على استقرار الدولة وبقائها القومي والمحافظة على حدودها الجغرافية والسياسية آمنة؟ (4) هل تستطيع القوات المسلحة الدفاع عن الحدود والعمق الاستراتيجي للدولة؟ (5) هل توفر نظم الدفاع الاستراتيجي الحماية الكافية لمراكز ثقل الدول كما هي مصورة من الناحية النظرية؟ المعنى العام لمفهوم مأزق الدفاع ملخص في فكرة عدم إمكانية حماية العمق الاستراتيجي للدولة بواسطة تشييد خطوط الدفاع الأمامية، كنتيجة لتطور التكنولوجيا العسكرية، التي جعلت نيران الأسلحة تصل إلى كل ركن من إقليم الدولة وبسرعة تفوق سرعة الصوت بعدة مرات. وفق هذا المنظور، يتضمن مأزق الدفاع مفارقة شائعة في التفاعلات الاستراتيجية بين وحدات النظام الدولي، تقضي بأن القوة العسكرية هي إحدى الأدوات الرئيسية المسيطرة على عمليات تحقيق الأمن والحفاظ على توازن القوى، وفي نفس الوقت هي مصدر رئيسي في إنتاج عدم الاستقرار وتآكل قوة الأمن القومي للدولة وقابلية العطب الشديد لاستراتيجية الدفاع الوطني؛ ومن ثم، تمثل القوة العسكرية -كمحدد رئيسي لميزان القوى- قلب أو جوهر مشكلة الدفاع الوطني ومسئولة عن إنتاج التحديات الاستراتيجية التي تواجه الدول.

الحقيقة أن مأزق الدفاع متجذر في التصورات الاستراتيجية التقليدية المتضمنة مفاهيم تأسيس الدولة، البقاء القومي، المصالح الوطنية، الدفاع، الريبة، البنية الفوضوية للنظام الدولي، وغيرها من المفردات التي يزخر بها تراث نظرية العلاقات الدولية والنظريات الاستراتيجية⁽¹⁶⁾، التي تدافع عن فكرة التلازم الوثيق بين القوة العسكرية ومفهوم الدولة؛ أنتجت هذه الفرضية بدورها حالة قابلية العطب المتبادل المتأصلة بشكل مزمن في العلاقات الاستراتيجية بين الدول، التي خلّفت وراءها الآثار المدمّرة للأمن القومي في صورته العسكرية وغير العسكرية. تمهّد كل هذه التطورات في مفاهيم الدفاع الوطني لتأسيس شرعية مفهوم «الدفاع بدون نيران الأسلحة»، الذي يوسع مسرح التباري الاستراتيجي ليشمل المقاربات غير العسكرية الفعالة في ردع التهديدات أو هزيمة استراتيجية العدو بدون قتال. في مقابل ذلك، يمكن التساؤل: هل يمكن أن تكون هناك فعالية دفاعية بدون حيازة القوة العسكرية؟ هذا سؤال شرعي ومستحکم في ذهن الاستراتيجيين والمخططين الدفاعيين والقادة السياسيين على حد سواء؛ بالطبع الإجابة الفورية هي لا. الإجابة في حد ذاتها تحمل مشكلة القوة العسكرية، المتضمنة ذلك التناقض الشديد بين اعتبارها كأداة أولية للدفاع عن الأمن القومي للدولة، وفي نفس الوقت هي وسيلة لتدمير المفاهيم الأساسية للدفاع، بسبب تبيدها لأهمية ومعاني خطوط الدفاع التي يمكن أن تحمي مصالح الدولة، وذلك عندما تستخدم تلك القوة كأداة لعمل السياسة الخارجية.

أدوات القتال مستمرة في التطور بشكل مأساوي، وليس هناك أدنى استعداد لدى الدول حول وقف السعي وراء حيازة مزيد من القوة العسكرية، يتلازم هذا مع تطور نوعية وحجم أدوات القتل الجماعي على نطاق واسع، وتنامي قابلية التدمير المتبادل لأصول البنية الأساسية وعناصر وجود الدولة فوق ميدان المعركة. إذا أردنا التلخيص، فإنه يمكن القول أن في عصر تطور أدوات القتل الجماعي والتدمير الهائل للمنشآت والبنية التحتية بواسطة القوة الجوية والصاروخية المرعبة، فإن خيار الدفاع عن المنشآت الحيوية للدولة أصبح في مأزق كبير، بسبب أنه لا ينجز المعنى الاستراتيجي المصاغ من قبل باري بوزان Barry Buzan عندما قال: «الدفاع في المعنى الحرفي هو الاحتفاظ بالقوات المسلحة للعدو بعيدا عن صناعتنا الاجتماعية»⁽¹⁷⁾.

مأزق الحرب، تأثير التكنولوجيا: يشتق مفهوم «مأزق الحرب War Dilemma» قيمته التحليلية وبنيته المفاهيمية من مسألة استراتيجية محددة في تلاشي قيمة الحرب

كأداة لعمل السياسة الخارجية، وتآكل معناها الجوهرية بسبب الارتفاع المتزايد لكلفة الحرب من حيث الموارد وجسامة الأعباء ذات العلاقة بالشؤون الإنسانية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. بالإضافة إلى تهديد الوجود الإنساني في حد ذاته؛ يعني مأزق الحرب التناقض الحاد بين الكلفة والغايات السياسية المقصودة من وراء استخدام القوة العسكرية لتحقيق أغراض السياسة، وذلك بسبب التطور المأساوي للأدوات المستخدمة في القتال والأخذة في الإبداع المعقّد من فترة زمنية لأخرى. تستخدم الحرب -في إحدى معانيها- لأجل «إكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا. فالحرب كعمل اجتماعي يفترض وجود إرادتين متصارعتين»⁽¹⁸⁾؛ تسعى كل واحدة منهما إلى إجبار الأخرى على الانصياع لها بواسطة استخدام القوة المسلحة. المشكلة الأساسية المطروحة في هذا السياق، أن الحرب في ضوء أدوات القتال الحديثة لم تعد أداة إكراه أو سيطرة على العدو فوق حقل المعركة، وإنما إبادة جماعية متبادلة للمجتمعات والدول المتحاربة وكذلك المجتمعات الأخرى القريبة من المعارك؛ وإذا كانت بين قوى عظمى (الولايات المتحدة والصين مثلا)، فإن الإبادة الجماعية سوف تشمل العالم ككل وليس فقط شعبي الدولتين. ليس بإمكان أحد الصمود إلى النهاية تحت القدرة التدميرية للأسلحة الحديثة، ومن ثم فهي لا تعني إكراه الخصم على الانصياع لإرادتنا كما طرح كلاوزفيتز Clausewitz، وإنما أصبحت تعني الإبادة الجماعية المتبادلة التي تتلاشى معها أي قيمة سياسية للأهداف المحتمل إنجازها؛ السبب الرئيسي في ذلك، أن كلا الطرفين المتصارعين فوق ميدان المعركة مزود بأسلحة لا تقل عن مستوى تحقيق الدمار والخراب لكل شيء، وسوف لا يتراجع أي أحد عن استخدام الأسلحة التي يملكها مهما كانت أخطارها عندما يشعر أنه اقترب من هزيمته، وهكذا تتحول الحرب إلى محرقة أو انتحار جماعي بدل من أنها أداة لعمل السياسة. وفق هذا المنظور، سوف لا تؤدي الحرب إلى تلاشي قيمتها السياسية فحسب، وإنما تتطلب من صناع القرار استبعاد منطق العقلانية (طالما أنها انتحار جماعي) تماما عند صناعة قرار شنها، وبالتالي سوف تكون الحرب بواسطة معدات القتال الحالية والمطورة في المستقبل ضرب من الطيش السلوكي المضاد للعقلانية التي نادى بها جراهام أليسون⁽¹⁹⁾ عندما درس أزمة الصواريخ الكوبية في أكتوبر 1962.

إذا كان ابن خلدون قد حدد غايات الحرب في الحصول على مصادر للثروة وشروط الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية وتحقيق رتبة معينة من الملك عندما قال: "جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن دافعهم عن متاعه آذونه بالحرب، ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك"⁽²⁰⁾؛ إلا أن معدات القتال

ونيران الأسلحة الحديثة قد بددت أي نوع من الربح المشخص من قبل ابن خلدون يمكن أن يُجنى من وراء الحرب، فهي لا توسع مصادر الربح الاقتصادي وتزيد تراكم ثروة الدولة، وإنما عوضاً عن ذلك تبيد كل أشكال وشروط الحياة القائمة من أبسط إنسان إلى أعلى مرتبة في المجتمع، ومن ثم أضعف تطوير الأسلحة توقعات تحقيق غايات الحرب المحددة من قبل ابن خلدون أو غيره من رواد علم الاستراتيجية. الأكثر من ذلك، إذا كان كلاوزفيتز قد نظر إلى الحرب على أنها «عمل من أعمال القوة لإجبار العدو على تنفيذ مشيئتنا.. وفرض إرادتنا على العدو هو هدف الحرب»⁽²¹⁾، ومن ثم تصبح أداة مناسبة لعمل السياسة عندما تتوقف الأدوات الأخرى عن العمل؛ فإنه في ظل التطور الهائل لأدوات القتال، أصبح حقل المعركة لا يترك شيئاً لكلا الطرفين يحمل فائدة أو يحقق مسعى جدي لفرض الإرادة وإخضاع الآخر لمنطق المصالح الاستراتيجية للدولة، لأن الأسلحة الجديدة سوف تنهك الجميع إن لم نقل تبيد المعنيين بالحرب والقريبين منها والذين يتوسطونها (خاصة في حالة وقوعها بين القوى العظمى).

صحيح أن جذور الحرب متأصلة في الطبيعة البشرية المتمظهرة في الانفعالات العنيفة والمشاعر العدائية وميول الكراهية، التي تدفع الناس إلى استخدام الأدوات المتاحة في قتال بعضهم البعض بطريقة جد وحشية ومبررة من الناحية السياسية وفق المنطق الكلاوزفيتزي. إن الدوافع الشريرة الدفينة في النفس البشرية لها مسئولية كبيرة عن قابلية الناس لقتال بعضهم البعض فوق ميدان المعركة، شرح كلاوزفيتز هذه الدافعية بقوله: "هناك نوعان مختلفان من الدوافع التي تجعل الرجال يقاتل بعضهم بعضاً: المشاعر العدائية، والنوايا العدوانية... ولا يمكن تصور وجود أو نشوء حتى أشد العواطف وحشية وكما هي عليه فعلاً، وبما فيها العواطف الغريزية، والحقد المرير دون نوايا عدوانية. هذه النوايا العدوانية ومن الناحية الأخرى غالباً ما تترافق مع أي نوع من المشاعر العدائية - أو على الأقل من ذلك النوع المسيطر مسبقاً. فالشعوب المتخلفة محكومة بعواطفها أما المتحضرون فمحكومون بالعقل. .. والخلاصة حتى أكثر الشعوب تمدناً يمكن أن تهيج بفعل حقد بعضها على البعض"⁽²²⁾. تتفاعل هذه المشاعر العنيفة فوق ميدان المعركة مدفوعة بواسطة أمل ورغبة كل طرف إخضاع الآخر وهزيمته، حتى ولو استمرت الحرب لفترة طويلة (الحرب البولوبونيزية في العهد الإغريقي، حرب داحس والغبراء في العصر الجاهلي للعرب، وحرب الثلاثين عاماً في وسط أوروبا)، لكن هذه الآمال آخذة في التبدد باستمرار على خلفية وعي أطراف الحرب المحتملة بما سوف تفعله أدوات القتال التي بحوزتهم؛ إنها لا تحقق الهدف

العملياتي المصاغ من قبل كلاوزفيتز عندما قال: ”وما دمت لم أقهر خصمي بعد فسأخشى أن يقهرني هو، هذا يعني أنني لست المسيطر، وهو يملي علي إرادته كما أفعل أنا معه“⁽²³⁾؛ وإنما سوف تمحو الوجود السياسي والاجتماعي والطبيعي للمجتمعات المتحاربة، وسوف لا تستطيع البقاء في القتال لأكثر من أيام.

باختصار، الحرب بواسطة أسلحة القتل الجماعي والتدمير هي انتحار جماعي، في مقابل وجود الميل المتأصل في الطبيعة البشرية نحو استخدام الحرب كأداة لتحقيق أهداف السياسة، هذا هو مركب المفارقة الاستراتيجية المشكّلة لمفهوم «مأزق الحرب»؛ لكن هذا لا يعني عدم وجود محاولات لتلطيف التحديات المطروحة بواسطة هذا المأزق على مستوى التنظير والمسرح العملياتي معا.

منظورات تخطي مأزق الحرب

1. ثورة المعلومات في الشؤون العسكرية

بشر أنصار ثورة المعلومات في الشؤون العسكرية في بداية تسعينيات القرن العشرين بأن التكنولوجيات المتقدمة المركبة قد جعلت أدوات القتال أكثر ذكاء في انتقاء الأهداف العسكرية، وذلك بواسطة أدوات التصوير المرئي وتطوير تكنولوجية الذكاء الإصطناعي ودمجها في نظم القتال الذكية (الذخائر الموجهة ذاتيا)؛ لقد تم تلخيص محتوى هذه الثورة في توليفة⁽²⁴⁾: «القيادة Command، السيطرة Control، الاتصالات Communication، الحواسيب Computing، الاستخبارات Intelligence، المراقبة Surveillance، الاستهداف Targeting، والاستطلاع Reconnaissance» [اختصارا CISTAR]. لسوء الحظ أن الحرب الأكثر حداثة في أوراسيا (2022) أظهرت أن الدول مازالت تقاتل بنفس ما يسميه البعض «بطريقة العصر الصناعي»⁽²⁵⁾، التي تعتمد على الاحتشاد الكبير، الاندفاع السريع، والقوة النارية الكبيرة. مع ذلك، يفترض أنصار هذا الاتجاه في التفكير الاستراتيجي وجود امكانية تخطي التحديات المطروحة بواسطة «مأزق الحرب» عن طريق استغلال التطويرات الجديدة في مجالات علم الاتصالات الرقمية، الحوسبة، الأقمار الصناعية، الإنترنت، والذكاء الاصطناعي لجعل الحرب أقل ضرا؛ على اعتبار أن كل هذه القطاعات العلمية مجتمعة قد أحدثت ثورة عميقة في الشؤون العسكرية، التي يمكن أن تتحكم في نيران الأسلحة وتقوم بتركيزها على أهداف معينة دون أخرى. ساهمت التكنولوجية المعقدة والمتعددة القطاعات

والمتغايرة الاستخدامات في تحقيق ما أسماه البعض «بالسيطرة الزمانية والمكانية، الجرأة، المرونة [التي] هي العناصر الرئيسية للمقاربة في ربح المعارك المفتوحة في الحرب»⁽²⁶⁾؛ لأنها بطريقة أخرى قد أحدثت «تغيرا كبيرا في طبيعة القتال المحمول بواسطة التطبيقات الإبداعية للتكنولوجيات الجديدة في التركيب بين التغيرات الأساسية في المذهب، التطبيقات العملية، والمنظمات [العسكرية].. [إنها تستلزم] تغيرات راديكالية في إدارة العمليات العسكرية وفي بعض الأحيان [تستلزم تغيرا] حتى في خاصية القتال الحربي»⁽²⁷⁾.

شجعت مثل هذه الأطروحات وجوانب الجذب والانبهار بالتكنولوجيات المعقدة المدمجة في الأسلحة الجديدة، القادة العسكريين على السعي الحثيث وراء تأكيد الطلب على «الذخائر الدقيقة، الآلية المتقدمة Advanced Automation، والقدرات الأخرى المنبثقة من العصر الرقمي وثورة الكمبيوتر»⁽²⁸⁾؛ على افتراض منهم أن مثل هذه القدرات قد نقلت شكل القتال من العصر الصناعي إلى نوع من القتال المعلوماتي الاستراتيجي، الذي يُستخدم فيه مجموعة نظم «المستشعرات الدقيقة وأنظمة المراقبة لتحديد الأهداف وقوات العدو في ميدان المعركة، الاتصالات السريعة، والمعالجة الآلية للبيانات لتصنيف المعلومات وقوات السيطرة وأنظمة الأسلحة (بما في ذلك الأسلحة النووية التكتيكية) مع تنظيم ودقة المعركة العميقة»⁽²⁹⁾. تجدر الإشارة إلى أهمية تأكيد أنصار هذا المنظور الاستراتيجي على أن الطريقة الجديدة في القتال مازالت تواجه مجموعة من التحديات المحددة في: «الصعوبات العملية؛ ضعف الاستراتيجية؛ أفعال العدو؛ تكييف العدو؛ الإخفاق الاستراتيجي؛ المشاكل التنظيمية؛ وضعف المذهب»⁽³⁰⁾. كل هذه التصورات التنظيرية والإقرار بالتحديات العملية لا تخفف ولا تُلطف تحديات مأزق الحرب المطروح بواسطة القوة النارية غير المسبوقة للأسلحة الجديدة، التي سوف تحوّل ميدان المعركة إلى محرقة شاملة.

2. نظرية القوة الفضائية

يعتقد أنصار هذه النظرية أنه أصبح بإمكان شبكة الأقمار الصناعية والبنية التحتية الفضائية ومحطات التحكم الأرضي تخفيف حدة مأزق الحرب الحديثة بواسطة نقل المعارك إلى شاشات مراكز التحكم والسيطرة والقيادة، وإعادة توزيع المعلومات عبر أجهزة معقدة وخفيفة يمكن حملها في الأيدي، وتستطيع استقبال كل البيانات الضرورية حول ميدان المعركة بشكل سريع ومنتدق، لمساعدة القوات

المسلحة على تركيز نيران الأسلحة وإنهاء القتال بسرعة. مثل غيرهم من المنظرين المولعين بالتكنولوجيات العسكرية الجديدة، يعتقد أنصار نظرية القوة الفضائية أن البنية التحتية للقتال الفضائي المشيدة فوق الأرض، المحلقة في الأجواء، والمنشورة في المدارات الفضائية المختلفة قد مكنت القيادة والمقاتلين من القيام بعملية تحديد أي موقع أو هدف عسكري عبر العالم، ونقل خاصياته التي تميزه عن الأشياء الأخرى بواسطة «التصوير الضوئي، الأشعة تحت الحمراء، الرادار، السونار Sonar [جهاز كشف المواقع]، والكاشفات الأخرى»⁽³¹⁾ إلى مركز القيادة للمساعدة على إجراء التقييمات الصحيحة واتخاذ القرارات المناسبة؛ يتم استغلال تلك المعلومات من أجل توفير الجهود العسكرية وتقليل الكلفة القتالية إلى الحدود الدنيا وبالتالي جعل الحرب أداة مربحة للسياسة، مما يعني بطريقة أخرى التغلب على تحديات مأزق الحرب.

وفق هذا المنظور، توفر المستشعرات الفضائية حجما كبيرا من المعلومات على المستوى العالمي بشكل يومي وعلى مدار الساعة، التي تساهم في تحقيق الوعي الشامل بالمحيط العالمي ومعرفة كل ما يجري فوق سطح الأرض أو في الأجواء والفضاء الخارجي. في المجال العسكري، المهمة الرئيسية لنظم الاستشعار الفضائي تحقيق ما يسمى «بوعي السيطرة على ميدان المعركة Dominant Battlefield Awareness»، الذي يعني قيام نظم الاستشعار المركبة في الأقمار الصناعية أو الموصولة بها في المحطات الأرضية أو طائرات الاستطلاع في الجو بنقل صورة المعركة من الواقع الفعلي للحرب إلى المشهد المتلفز على الشاشة الكبيرة أمام القادة العسكريين في مركز القيادة؛ بشكل يجعلهم أكثر قدرة على فهم ما يجري على الأرض وصنع القرارات المناسبة الموجهة نحو تحسين الموقف القتالي للوحدات العسكرية وتزويدها بالمعلومات المطلوبة، ومعرفة حاجاتها الضرورية من الدعم اللوجستي؛ بالإضافة إلى القدرة على تحديد الأولويات القتالية وتمييز المهام العسكرية المطلوبة بالحاح عن غيرها. ليس هذا فحسب، وإنما تساعد نظم الاستشعار على «تحديد قدرة العدو في القيادة، توفير اللوجستيك، تنظيم المجتمع، والعمل على.. [منعه من] فهم ماذا يحدث وما لا يحدث»⁽³²⁾.

تنعكس قيمة الاستخدام المتزايد لمكونات القوة الفضائية في تحسين قدرات القتال وتلطيف الصعوبات المعقدة المطروحة بواسطة مأزق الحرب، وذلك من خلال مصفوفة التسهيلات والامتيازات المتعددة الموفرة بواسطة الأقمار الصناعية، القابلة للاستخدام في إدارة الوعي الشامل بمعركة القتال؛ يمكن تلخيص تلك المكونات

الفضائية في مجموعة النقاط التالية: 1) «نظام الاتصالات والبيانات المحمولة Communications and Data Handling»، المتخصص في استقبال والمحافظ على المعلومات المنقولة إلى القمر الصناعي من المحطة الأرضية عبر روابط القيادة، وإعادة نقل البيانات المجمعة عن بعد بشكل فوري من القمر الصناعي (أو شبكة الأقمار الصناعية العاملة في المدارات المختلفة) إلى المحطات الأرضية عبر روابط البيانات، لتوزيعها على الشبكات المختلفة بوفرة كافية والسرعة المطلوبة لإدارة أغراض القيادة والسيطرة والتحكم. 2) «نظام الاتجاه والتحكم في المدار Attitude and Orbit Control System»، الذي يقوم بمهمة تحديد الاتجاه الصحيح للقمر الصناعي ضمن المدار المحدد له والمحافظ على بقائه ضمن مداره خلال عملية دورانه، بحيث يبقى في الموقع الدقيق الذي يستطيع فيه أن يجمع المعلومات المطلوبة وتلقي التوجيهات عن بعد من المحطة الأرضية. الغاية العملية الموضوعية لهذا النظام هي توفير التموضع الدقيق لهوائيات الاتصالات، مستشعرات التصوير، وأي مهمة أخرى للمستشعرات التي يحملها القمر الصناعي، بشكل تصبح قادرة على توفير البيانات المطلوبة بنسبة عالية من الدقة والسرعة والوضوح وبالوفرة المطلوبة. 3) «نظام التعقب، القياس عن بعد، والقيادة Tracking, Telemetry, and Command System»، الموجه نحو جمع «البيانات المتناظرة، المميزة، والرقمية من الأنظمة المختلفة للمركبة الفضائية، ومعالجتها في مجرى متواصل مع نقل البيانات بشكل مباشر إلى الأرض أو التخزين لنقلها لاحقاً. تحلل هذه البيانات وتقيّم على الأرض لتحديد الحالة الصحية للمركبة الفضائية والتنسيق العملياتي. وظيفة القيادة والسيطرة هي رقمية كلية»⁽³³⁾.

هذه مجرد أمثلة لما يمكن أن تساهم به شبكة الأقمار الصناعية في إدارة الحرب الحديثة، وذلك من خلال توفير «قوة الدعم وتكامل القوة الفضائية في القتال الأرضي؛ شن القتال الأرضي لدعم قيادة الفضاء، والقتال الفضائي لدعم العمليات الأرضية»⁽³⁴⁾. ليس هذا فحسب، وإنما بإمكان القوة الفضائية المساهمة بفعالية في تحقيق عملية التكامل القتالي بين القطاعات العسكرية المختلفة فوق ميدان المعركة الواحد. لذلك، الغاية الأولية التي دفعت الأمم نحو الفضاء محددة في السعي وراء السيطرة الاستراتيجية وإسقاط القدرات العملياتية فوق ميدان المعركة من أجل كسب نتائج الحرب بأقل كلفة وأكثر ربحاً، وبذلك أصبح الفضاء من وجهة نظر الجنرال وليام شيلتون Gen. William Shelton يمثل «القدرة الأساسية لكل العمليات العسكرية»⁽³⁵⁾، التي يتم تنفيذها فوق كل المسارح القتالية بواسطة ربط

معدات القتال ومراكز القيادة في القوة البرية والبحرية والجوية بالأقمار الصناعية للحصول على المعلومات المطلوبة في توجيه النيران، إدارة العمليات، صناعة القرار، والوعي بالمحيط العام للبيئة الاستراتيجية.

من الناحية التطبيقية، أبدى أنصار نظرية القوة الفضائية تفاؤلا كبيرا حول الإمكانيات الكبيرة التي يمكن أن تغيّر وجه الحرب في المستقبل وتتخطى تلك التعقيدات المطروحة بواسطة «مأزق الحرب»، وذلك من خلال صياغة المستوى المتقدم في تنظيم الاشتباك المسلح، إدارة عمليات الردع، تثبيت السلم فوق اليابسة، المحافظة على أمن الخطوط البحرية، تحييد نيران العدو، وغيرها من المهام العملياتية التي يمكن أن تنجز بواسطة عدد من أنظمة الاستشعار، «كنظام تحديد المواقع العالمي (GPS) Global Positioning System»، «الإنذار المجوقل ونظام التحكم السريع، تحديد الهوية، الكشف، وإصدار التقرير (RAIDRS) the Rapid Attack»، «نظام الهجوم السريع، تحديد الهوية، الكشف، وإصدار التقرير (RAIDRS)»، «نظام التحكم الفضائي Identification, Detection, and Reporting System»، و «أنظمة التحكم الفضائي الدفاعي (DSC) Defensive Space Control»؛ هذه مجرد أمثلة لشبكات كبيرة من الأنظمة المبنية على الوظائف والمهام المنجزة بواسطة شبكات الأقمار الصناعية، التي «تسمح للقادة بالإعداد والدفاع ضد تهديدات العدو لحظة الإشارة، وأصبحت مترادفة مع العمليات القتالية الحساسة والحاسمة أمنيا»⁽³⁶⁾.

تبدو الأفكار المطروحة من قبل أنصار نظرية القوة الفضائية جذابة ولها تأثير سحري على عقول القادة والجنود، على الأقل من حيث التصوير النظري واختبار بعض التطبيقات العملياتية الخاصة بها؛ لكن المعضلة في مأزق الحرب أنه ناتج جزئيا من سعي الدول نحو نفس الهدف، تتنافس حول نفس مجالات القتال، وتتحكم في التكنولوجيا العسكرية الدقيقة ذات القوة النارية غير المسبوقة، بحيث أصبحت هذه الدول بإمكانها التسبب في أضرار جسيمة ضد مجتمعات بعضها البعض تتخطى حدود البقاء الاجتماعي والسياسي، ككيانات سوسولوجية لتشمل الفضاء الخارجي.

3). نظرية القتال المشترك

طرح أنصار هذه النظرية مجموعة من المفاهيم النظرية والعملياتية المشتقة أساسا من التأثير غير المسبوق للتكنولوجيا الدقيقة على الشؤون الاستراتيجية والعسكرية، يمكن تصنيف أمثلة منها ضمن النقاط التالية:

- «قابلية العمل المشترك»⁽³⁷⁾ «Interoperability»، التي تعني «قدرة الأنظمة، الوحدات، أو القوات على توفير المعلومات واستقبال المعلومات من الأنظمة الأخرى، الوحدات، أو القوات واستخدام المعلومات المتبادلة لتمكينها من التفاعل مع بعضها البعض بفعالية»⁽³⁸⁾؛ أو هي: «قدرة الناس [أفراد الوحدات القتالية والقادة العسكريين] والمنتجين والمعدات والأجهزة على العمل معا بفاعلية وكفاءة في ظروف المعركة كافة»⁽³⁹⁾.

- «القتال المركب Combination Warfare»، الذي يعني وجود «نظرية [تقضي] بأن أي قطاع عسكري يقدم امكانياته [ويحقق فعاليته القتالية] عندما يستخدم في تركيب مع القطاعات الأخرى»⁽⁴⁰⁾.

- «القتال المشترك Joint Warfare» الذي يعني: «التعاون [بين الوحدات القتالية] أرض جو أو بحر جو...»⁽⁴¹⁾.

- «القتال الشبكي المركز Network Centric warfare» الذي يقضي بأنه: «دمج القطاعات الاستخبارية المتعددة، العملياتية والبيانات اللوجستية لنقل التفوق المعلوماتي [إلى حقل المعركة]، وتمكين القوات من توقع، سبق، والتفوق على العدو»⁽⁴²⁾.

تقضي الفكرة العامة المستخلصة من المفاهيم الاستراتيجية السابقة الذكر بأن الجيوش في الدول الكبرى والمتوسطة تسعى جاهدة لتخطي التحديات المطروحة بواسطة مأزق الحرب عن طريق الاستعانة بالتكنولوجية من أجل خلق الفعالية القتالية العالية، السريعة، وتحييد نيران العدو وتقليص تأثيرها على مسرح العمليات.

4. نظرية الردع الاستراتيجي

ليس هناك وجه واحد «لمأزق الحرب»، وإنما يتمدد في كل تفاصيل الشؤون الاستراتيجية ويفرض منطقه على اتجاهات التفكير حول المستقبل، على افتراض أن الحرب ظاهرة مستمرة في العلاقات الاستراتيجية الدولية لكنها تدفع الأطراف إلى حتفهم بدل إنجاز أهداف السياسة؛ ومن ثم، يصبح السؤال الملح: ما العمل؟ إحدى محاولات الإجابة عن هذا التساؤل قُدمت من قبل أنصار نظرية الردع الاستراتيجي المتضمنة منع الحرب وليس إدارة الحرب. يستوجب مبدأ الردع توظيف دافع الخوف الناتج عن عامل التهديد بالرد الانتقامي من أجل منع وقوع الحرب، أو هو عبارة عن «استراتيجية استعمال التهديد لمنع أو حرمان الخصم من محاولة تحقيق أهدافه»⁽⁴³⁾؛ بصفة عامة، يكمن جوهر الردع في تقليص ميول العدو نحو شن الحرب عبر خفض توقعات الربح إلى الحدود الدنيا. العامل النفسي حاسم في خلق الردع القادر على

منع الحرب، لأنه يحمل «تأثير سيكولوجي على الخصم الذي يؤدي إلى نتيجة عدم اتخاذ قرار القيام بالفعل من قبيل الهجوم أو بدء الحرب. فالردع هو التفكير الذي يُنجز عبر الخوف من الانتقام العقابي أو عبر الحساب العقلاني، بحيث أن الذي يتخذ هذا الموقف سوف لا ينجح في إنجاز الأهداف المقصودة أو أن كلفة ذلك الفعل تكون عالية»⁽⁴⁴⁾.

التعويل في تطبيق مبدأ الردع من أجل منع شن الحرب مرّكز على خاصية العقلانية الصارمة التي يتمتع بها صناع القرار في دولة العدو، بناءً على افتراض من روبرت جوزيف Robert Joseph بأن الردع الفعال يجب أن يكون «أي كلمات أو أعمال تدفع المعتدي إلى استنتاج أن الفوائد المتحققة أو الناجمة عن مباشرة عمل أو تصرف ما سوف تقل عن تكاليفه. مبدأ الردع هو قيام الفاعل، سواء كان دولة أو جماعة أو أفراداً- وبصورة عقلانية- بموازنة تكاليف وفوائد القيام بعمل أو تصرف ما، ومن ثم يقتنع بعدم القيام بهذا العمل أو التصرف أو يرتدع عن القيام به، ويتجنب بالتالي أي تكاليف مرتبة عن ذلك»⁽⁴⁵⁾؛ لا تكون للعقلانية أي قيمة في إنتاج فعالية الردع الاستراتيجي إذا لم يتم «الإقناع بالعدول عن العمل..»⁽⁴⁶⁾. عندما تجتمع أربعة عناصر: التهديد، الخوف، العقلانية، الإقناع بتنفيذ الرد الانتقامي من قبل الخصم، سوف يتشكل مفهوم الردع كأداة للسياسة تعوض الحرب من أجل منع الاعتداء والاحتفاظ بالوضع القائم، وفي نفس الوقت تفادي الوقوع في دوامة مأزق الحرب؛ لذلك، بالنسبة لأنصار نظرية الردع، تكمن أهمية الحرب كاستمرار للسياسة في تجنبها وليس خوضها، الاستعداد لها دون شنها.

الافتراض العام الذي تقوم عليه معادلة الردع ملخص حول فكرة أنه لا وجود لخاصية الردع في العلاقات الاستراتيجية الدولية ما لم يكن هناك تهديد جدي وخطير، الذي يستهدف الجميع إذا استخدمت القوة العسكرية من قبل الدول ضد بعضها البعض، ويجب أن يكون مستوى الخطورة عالياً ومحققاً إلى درجة إنشاء الخوف المتبادل الذي يكبح سلوك الاعتداء أو صنع قرار شن الحرب. تتضمن طبيعة التهديد خطر التدمير الشامل والخسارة المؤكدة للقيم الحيوية المتبادلة في حالة نشوب الحرب، وفي نفس الوقت تدني التوقعات الثابتة حول كسب نتيجة الحرب أو وجود إمكانية عالية لفقدان استقلال الدولة في حد ذاته؛ بهذه الطريقة يتم منع وقوع الحرب ومن وراء ذلك تجنب الآثار السلبية لمأزقها. المشكلة في نظرية الردع (حتى ولو بدا

في الظاهر أنها موجهة لمنع وقوع الحرب وعلاج لمأزقها) أن الدول مطلوب منها العمل باستمرار على صيانة نظام الردع عبر الابداع المتزايد للنظم الجديدة في القتال، مراقبة الخصوم، وإبقاء التأهب العسكري في مستوياته العالية؛ مما يعني بطريقة أخرى، بقاء قابلية شن الحرب مرتفعة وبأدوات مرعبة. في كل الأحوال، تستلزم نظرية الردع - كما هي مطروحة من قبل أنصارها- منذ ظهورها خلال الحرب الباردة، التطوير المستمر لأنواع مختلفة من الأسلحة التي لا تؤدي إلى هزيمة العدو، وإنما الإبادة المتبادلة لمجتمعات الدول المتحاربة؛ خاصة فيما يتعلق بالقوة الجوية والصاروخية، التي لخص مهامها أوفري R. J. Overy بقوله: «لقد كان يفترض بأن الهجوم الجوي سوف يكون موجهاً مباشرة إلى المراكز الحضرية، جزئياً بسبب أنها مواقع للحكومة أو المراكز العصبية الإدارية، وجزئياً بسبب أنها كانت عادة موقعا للصناعة، لكن بشكل كبير بسبب أن السكان في المناطق الحضرية كانوا ينظرون [للقصف الجوي على أنه سحق شامل]»⁽⁴⁷⁾.

عندما تُدخل الأطراف كل هذه المعطيات ضمن حسابات صناعة قرار الحرب، تجد أن الإقدام على مثل هذه الخطوة سوف يؤدي إلى انتحار الجميع كوجود اجتماعي وسياسي؛ ومن ثم، السعي وراء السلم سيكون الخيار الأكثر جدوى وربحا للجميع. مرة أخرى في العلاقة بمفهوم «مأزق الحرب»، يجب التساؤل هل خوف الدول من عواقب الرد الانتقائي سوف يجعلها بعيدة عن شن الحرب بطرق أخرى؟ وهل عدم شن الحرب يعني بالضرورة أن الدول تتوقف عن التحضير لها أو التفكير حولها؟ الإجابة الفورية والواقعية هي لا، ومن ثم يستمر مأزق الحرب في التأثير على سلوك الدول وتوجيه العلاقات الاستراتيجية الدولية نحو شحن الدوافع وإذكاء الإرادة السياسية في خوض الحرب بعدة طرق، طالما أن العدو سوف يطبق نفس المقاربة.

هناك عامل آخر مفاقم لتأثير مأزق الحرب على الشؤون الاستراتيجية الدولية، محدد في المناخ الاستراتيجي المحيط بمقاربة الردع، المتضمن التطوير المتسارع للإبداعات التكنولوجية الخاصة بالأسلحة، المعدات، تجهيزات البنية التحتية لتشغيلها، وانشغال الأطراف المعنية المستغرق لمعظم جهودهم حول تطوير أدوات الردع والرد على التطويرات التقنية أو العمليات التي تجري داخل الدول الأخرى، بالإضافة إلى مراقبة منحنى تطور التوازن الاستراتيجي؛ تشكل كل هذه المعطيات مدخلات أساسية لمأزق الحرب عبر تصعيد حدة القلق حول إمكانية نشوب الحرب غير مضمونة العواقب وليس فيها أفق للنصر. ضمن خاصيات هذا السياق، يتشكل مأزق الحرب بطريقة معقدة ويتغذى من مصادر متعددة التي تدفع الدول نحو حتفها، فهو يعمل بطريقة لولبية بحيث تنتج كل حلقة من سلسلة التفاعل الاستراتيجي وضعا أكثر تعقيدا من سابقه؛ لقد عبّر عن هذا التعقيد اللولبي ضمينا وزير الدفاع الأمريكي السابق السيد

هاري ودرينغ عندما قال عام 1938: «تحققنا من أن الطائرات وحدها لا تصنع القوة الجوية. يجب أن يكون لدينا مشغلين ماهرين، صيانة مدربة، حشود مقاتلة، تجهيز تكميلي فعال وقواعد وافرة»⁽⁴⁸⁾.

القضية الأساسية في الأفكار المطروحة من قبل أنصار نظرية الردع الاستراتيجي أن تبني مثل هذه النظرية سوف يؤدي إلى المنافسة المفتوحة وظهور المخاطر الكبرى المقوضة للأمن الدولي، وأنها تدفع الدول نحو حيازة مزيد من الأسلحة ذات القوة النارية المتفوقة على ما لدى الآخرين، على افتراض أن كل الدول متأثرة وتتبنى مفهومة هانس مورغنتو «للمصلحة الوطنية» التي تقضي بأنها: «حيازة القوة، الاحتفاظ بها، وزيادتها»⁽⁴⁹⁾؛ ومن ثم، تصبح نظرية الردع مجرد جزء مكمل للسياسة الواقعية المتبعة من قبل الدول المسئولة عن ظهور «مأزق الحرب». ضمن هذه الرؤية، فإن «مأزق الحرب» يشترك معانيه العملية من وضعية العلاقات الاستراتيجية بين الدول، التي تتميز: (أ) بعدم فعالية الإجراءات الدفاعية المضادة للأسلحة النووية؛ (ب) التطوير المتواصل من قبل كل الأطراف لأدوات التوصيل الأكثر قدرة على الانفلات من ذبذبات الرادار والأكثر سرعة في الوصول إلى الأهداف مهما كانت بعيدة، سواء تلك المنتشرة فوق الأرض أو تلك المحصنة تحت الأرض أو في أعماق المياه؛ (ج) التنافس على كسب التفوق في القوة الجوية أكثر من القطاعات العسكرية الأخرى، على افتراض وجود علاقة وظيفية قوية بين القوة الجوية والأسلحة النووية، إذ تُحمل هذه الأخيرة بواسطة القاصفات الاستراتيجية أو الصواريخ الباليستية العابرة للقارات.

بصفة عامة، يتغذى «مأزق الحرب» من المهام التي يقوم بها مفهوم الردع الاستراتيجي (سواء المقصودة أو الجانبية) مثل: (أ) إذكاء المنافسة الأمنية بين عدد غير محدد من الأطراف؛ (ب) إبقاء التكنولوجيا العسكرية الدقيقة على رأس الأولويات الاستراتيجية للدولة؛ (ج) شحن العلاقات الدولية بالعداء والخوف وعدم الثقة؛ (د) تحضير الدول باستمرار للانخراط في الحرب المتوقعة؛ (هـ) وإثقال الميزانيات الوطنية بالأعباء الاقتصادية لبرامج التسلح الاستراتيجي.

5. نظرية قوة الروبوت

يحمل مفهوم «مأزق الحرب» معنى انعدام السبيل واستنفاد الخيارات وقلة الحيلة في جعل الحرب أداة مناسبة في خدمة أغراض السياسة، وذلك بواسطة تبديدها لقيمة أي نصر ينجز فوق ميدان المعركة، كنتيجة لحيازة كل الأطراف أسلحة التدمير

الشامل والقتل الجماعي، وأن كل واحد لا يتردد في استخدام تلك الأسلحة عندما يُحشر في زاوية أو يقترب من هزيمته النهائية. أوقعت المكننة العسكرية منذ العصر الصناعي في النصف الثاني من القرن السابع العاشر إلى العصر النووي في النصف الثاني من القرن العشرين العالم في مأزق كبير، يحمل إمكانية إبادة نفسه بنفسه إذا استخدمت الدول الأسلحة التي تمتلكها أو تطورها في المستقبل. لتخطي الآثار المأساوية لهذا المأزق، بحث عدد من الدول (المتطورة صناعيا وتقنيا وعلميا) في تكوين جيوش الروبوت للقتال بالنيابة عنها ولها قدرة على تحمّل نيران الأسلحة المرعبة وأيضا إمكانية قتالها في البيئات الاستراتيجية الملوثة بالإشعاعات النووية أو جراثيم الأسلحة البيولوجية والكيميائية. طالما أن الحرب ظاهرة ملازمة لعالم الاستراتيجية بحيث لا يمكن التخلص منها بأي شكل من الأشكال، فإن أنظار المفكرين والمخططين الدفاعيين تتجه نحو استغلال تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي في تكوين جيوش الروبوت القادرة على القتال فوق ميدان المعركة بواسطة التحكم الإنساني كمرحلة أولى، والعمل على تطوير أجيال ذات ذكاء عالي تستطيع القتال وحدها باستقلالية عن البشر. «أنظمة الأسلحة المستقلة المميّنة»⁽⁵⁰⁾ Lethal Autonomous Weapon Systems.

الحقيقة أن هذه الأطروحة ليست من نصب الخيال أو أحلام اليقظة وإنما هي اتجاه تفكير استراتيجي ناشئ، بدأ في الولايات المتحدة وانتشر عبر العالم مثل بريطانيا، الصين، ألمانيا، وغيرها من الدول؛ المؤشر الإمبريقي على تماسك هذه الأطروحة هو الاهتمام المتزايد عبر العالم بتطوير برامج الذكاء الاصطناعي المتعدد الأغراض، عن طريق إنشاء جامعات ومعاهد متخصصة في تطوير هذه الحقل من المعرفة العلمية.

إحدى النماذج الأولية للروبوت المستخدمة في الأغراض العسكرية المختلفة هي الطائرات المسيّرة التي اشتهرت في الجيش الأمريكي باسم «Predator»، انخرطت في العمليات القتالية بشكل مباشر لأول مرة خلال «عملية تحالف القوة» للحلف الأطلسي في حرب كوسوفو عام 1998-1999، أخذت لاحقا حصة كبيرة في ميدان المعركة خلال حرب أفغانستان لملاحقة الجماعات المسلحة المناهضة للولايات المتحدة من تنظيم القاعدة وحركة طالبان؛ لقد برز الاعتماد عليها بشكل كثيف بسبب قدرتها على الوصول إلى مواقع اختباء المقاتلين في الجبال وداخل المدن؛ ومن ثم الاشتباك مع الهدف بالنيابة عن الجنود المقاتلين وعندما تتم خسارة إحدى الطائرات المسيّرة فإنها لا تجلب الانتباه على العكس عندما تحدث خسائر وسط الجنود. ليس هناك امتياز واحد ذو علاقة باستخدام الطائرات المسيّرة في القتال، يرغب القادة

المدنيون والعسكريون على حد سواء في خوض القتال دون تحمّل أعباء سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، بالإضافة إلى الفعالية القتالية في تحديد وتدمير الهدف بسرعة قبل أن يختفي أو يتحرك من مكانه، والاندفاع نحو القتال دون خوف من الموت أو الوقوع في الأسر أو التعرض لإصابة معينة، ناهيك عن القوة النارية التي تحملها المسيّرات إلى الجانب الآخر من جبهة العدو؛ يأمل المتحمسون لقتال الروبوت في نقل ميدان المعركة إلى خلف الخطوط الدفاعية للعدو عبر البحث عن الأهداف العسكرية وتدميرها، وهذا ما يؤدي في غالب الأحيان إلى خلق الفوضى داخل صفوف العدو. المستوى المتقدم الذي يسعى خلفه المصممون لبرامج تطوير قتال الروبوت هو «نظام التسليح المستقل Autonomous Weapon System»، بحيث تستطيع الروبوتات الاستعداد واتخاذ قرار استخدام القوة النارية وتقييم الموقف بعد ذلك بنفسها دون مساعدة الانسان؛ بشكل تصبح تدير ميدان المعركة باستقلالية وتنجز وظيفة القتال بالنيابة عن الانسان بشكل كامل.

المهمة الأولى للطائرات المسيّرة المنجزة بالنيابة عن البشر كانت المراقبة وجمع المعلومات (أو ما يسمى بمهام «الاستخبارات Intelligence، المراقبة Surveillance، الاستطلاع»⁽⁵¹⁾ Reconnaissance) التي هي أصلا من مهام الاستخبارات، لكن مع اشتداد حدة تأثير «مأزق الحرب» في القتال غير النظامي على وجه الخصوص، ظهرت الحاجة الملحة لتوسيع المهام العسكرية لهذا النوع من الروبوتات تشمل تحديد خاصيات الهدف، الاشتباك، تقييم الآثار، والمساهمة في عمليات الدعم اللوجستي والإمداد وإسناد القتال؛ تنجز الروبوتات مثل هذه المهام وأخرى لفترة طويلة دون أن تحتاج لإعادة التزود بالوقود أو تتعب من التحليق في السماء، وفي نفس الوقت لا تعرّض الطاقم المشرف على توجيهها لخطر نيران العدو. الجانب الذي جعل الروبوتات جذابة بشكل متزايد محدد في قابلية استخدامها فوق المسارح المختلفة للقتال فوق البحر، تحت الماء، فوق اليابسة، في الأجواء، وحتى في الفضاء الخارجي؛ ومن ثم، بإمكانها القتال بالنيابة عن الانسان في كل الوضعيات المحتملة، خاصة تلك التي تحفها مخاطرة كبيرة على المقاتلين؛ أو كما شرحت مهامها إيلينور سلوان بقولها: «تُستخدم ابتداءً للقيام بالمهام الخطيرة، مثل البحث عن وتدمير القنابل على جانب الطريق. تتضمن الأدوار الإضافية كالحراسة وحماية المواقع العسكرية، المجالات الجوية، والمنشآت البحرية؛ الاستطلاع، مثل دخول البنايات قبل الجنود؛ واللوجستيك، بواسطة المساعدة واستكمال تعبئة الجنود وتأهبهم فوق الأرض»⁽⁵²⁾. ليس هذا فحسب، وإنما سوف

يؤدي استخدام الروبوتات في المعركة إلى تقليص عدد المقاتلين فوق ميدان المعركة من أجل الحد من الإصابات البشرية، وكذلك تقليص حجم المعدات المستخدمة في القتال التي تحتاج للصيانة المستمرة والوقود.

بدأت تظهر المفاهيم الجديدة الخاصة بقتال الروبوت مع الاستخدام الأولي لبعض النماذج منها في المعارك خلال الحروب الأخيرة، ونالت شهرة مع النتائج التي حققتها طائرات بدون طيار على وجه الخصوص في الوصول إلى الأهداف التي لا تستطيع القوات العادية الاشتباك معها، أو القتال في المناطق المزروعة بالألغام، مثل استخدام الأتراك للطائرات المسيّرة في معركة الدفاع عن طرابلس عام 2019، وحرب أذربيجان في ناغورني كارباخ عام 2020، وحروب الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وجنوب آسيا. من بين المفاهيم المقترحة في هذا الصدد، نجد «قتال السرب Swarm Warfare»، الذي يشير إلى تكوين مجموعة من الروبوتات للقتال بشكل تعاضدي ضد الهدف العسكري، استنباطاً من طريقة قتال سرب النحل ضد الأهداف المعادية؛ أو هو: «مجموعة من أنظمة المسيّرات الصغيرة المشبّكة المستقلة تُشغل بشكل تعاوني لإنجاز الأهداف المشتركة»⁽⁵³⁾ صحيح أن التنظير لقتال الروبوت مازال ناشئاً، لكن التطبيقات العملية قد ساهمت في توضيح الرؤية حول شكل حروب المستقبل وبرهنت استخدامات الطائرات المسيّرة في الأغراض المتعددة على عزم الجيوش الحديثة المضي قدماً نحو تطوير هذا النوع من المعارك. فإن الاتجاه العام في التفكير الاستراتيجي مرّكز حول الاعتماد المتزايد على تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي من أجل التغلب على مأزق الحرب، الأمر لا يعني فقط القوى الصناعية العظمى مثل الولايات المتحدة والصين وبريطانيا، وإنما أيضاً الانخراط النشط للقوى الناشئة في المنافسة الاستراتيجية لهذا الحقل مثل تركيا، إيران، وبعض الدول الأخرى من أجل تطوير معدات التحكم عن بعد في القتال الحديث.

إن التحدي المطروح بواسطة مأزق الحرب مشخص في سعي الدول وراء بناء قدراتها المساعدة على الصمود والقتال تحت نيران الأسلحة الحديثة حتى الوصول إلى النهاية المرغوبة التي عادة تُعرف بأنها هدف السياسة، إحدى الخيارات الواعدة متاحة بواسطة تطوير قدرات قتال الروبوت واستغلال تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي لغرض تطوير مفهوم «معركة الروبوت» بدل معركة الجندي؛ بالرغم من الجدل أو الحوار الاستراتيجي حول إمكانية استبعاد الجندي من المعركة وتفويض مهامه القتالية إلى

الروبوت أم أن الحرب يجب أن تدار بروح البشر وليس الآلات المبرمجة. مهما كانت المحاججات القانونية والأخلاقية والاستراتيجية حول جدوى معركة الروبوت، إلا أن إيقاع التطويرات التكنولوجية والتطبيقات العملية والاستخدامات الميدانية لطائرات بدون طيار والنماذج الأخرى للروبوت، كان أكثر إقناعاً في عزم الدول على استكمال هذا النوع من الجيوش والدفع به في حروب المستقبل.

في الواقع، المنطق المفروض بواسطة مأزق الحرب يقضي بأن الدول سوف تلجأ لكل الخيارات من أجل ربح الحرب حتى ولو كانت ضد الإنسانية، تحت تبرير إنهاء الحرب أو تدمير العدو أو الدفاع عن النفس وغيرها من المبررات التي تحمل معاني أخلاقية أو سياسية في ضوء ثقافة استراتيجية معينة. فإذا كان توسيديس قد حدد ثلاثة دوافع لشن الحرب: الخوف، الشرف، والمصلحة⁽⁵⁴⁾؛ فإن في ضوء الأسلحة المستخدمة في الحرب الحديثة يعتبر الخوف أو الرعب هو أكثر الدوافع المغذية لمأزق الحرب، ومن ثم يكون الخيار العقلاني البحث عن الأدوات المساعدة على تجنب أضرار نيران الأسلحة؛ وجدت الدول حاجتها عند الشركات المتخصصة في تطوير برامج الذكاء الاصطناعي وتصميم الروبوتات ذات العقول عالية الذكاء، التي بإمكانها أداء مهام متعددة تحت كل الظروف وفي كل الأوقات؛ إنها متعددة التخصصات ومتنوعة الخصائص.

يتكون نظام الروبوت بصفة عامة من ثلاثة أجزاء: مستشعرات التوجيه في البيئة، المعالجات أو الذكاء الاصطناعي لتقرير كيف يستجيب إزاء المنبهات والمواقف، ومجموعة الأدوات المستخدمة في القيام بالأعمال أو رد الفعل المناسب إزاء المنبهات؛ تتمايز تصاميم الروبوتات في الامتيازات المزودة بها والتعدد في المهام وكذلك القدرة على العمل تحت كل الظروف الطبيعية والمصطنعة. أكثر هذه الامتيازات أهمية قدرات العقل الإلكتروني في تشخيص الأوضاع، التعرف على الأهداف، وتمييز الأجسام بالطريقة التي يكون فيها أكثر فعالية في أداء المهام. توظف كل هذه الامتيازات وأنظمة البرمجيات في القطاعات المختلفة من أجل تحقيق الفعالية في الإنجاز، السرعة في الأداء، وتقليل الكلفة في الإنتاج والعمل؛ بالطبع القطاعات الأكثر خطورة وإثارة للخوف والحساسية بين الدول هي الشؤون الاستراتيجية والعسكرية، عندما تصمم الروبوتات للقيام بالمهام الاستطلاعية أو القتالية نيابة عن البشر. لذلك، محور المنافسة في هذا القطاع مركز بشكل كبير حول تطوير النماذج الأكثر ذكاءً لغرض تنفيذ المهام المعقدة والخطيرة، أين تكون الروبوتات مزودة بقدرات «التوجيه الذاتي Self-directed» أو على الأقل تكون «شبه مستقلة Semi-autonomous» وأنظمة «اتخاذ القرار الذاتي Self-deciding⁽⁵⁵⁾»، المطلوبة في أداء مهام الاستطلاع وتحديد الأهداف المعادية والتعامل معها بفعالية وسرعة قبل أن تختفي أو تتخذ الوضع الدفاعي؛ يتم

برمجة كل هذه المهام في العقل الإلكتروني وتزويده بكل الاحتمالات والطوارئ التي تظهر في البيئة والخيارات التي يجب أن ينتقي من بينها للقيام بالرد المناسب.

بالرغم من الامتيازات الواعدة الأولية المجربة فوق ميدان المعركة أو المصاغة من الناحية النظرية لقوة الروبوت في تخطي تحديات مأزق الحرب، إلا أنه من حيث الجوهر يمكن القول أن هذا النوع من القتال سوف يفاقم هو الآخر تلك التحديات ولا يقلصها أو يساهم في تخفيفها؛ على افتراض أن استراتيجية قتال الروبوت موجهة في طريقة عملها بواسطة المبدأ العام للحرب المقترح من قبل كارل فون كلاوزفيتز: «تدمير قوات العدو وتجريده من سلاحه»؛ الرؤية الكلاوزفيتزية هي تكريس لمأزق الحرب في أعقد صورته عندما تستخدم الأسلحة الحديثة لغرض إنجاز أهداف السياسة، على اعتبار أن كلا طرفي النزاع مزود بأسلحة ذات القتل الجماعي أو التدمير الشامل، المؤدية إلى النتيجة المميتة المتضمنة قدرة كل واحد على إبادة الآخر. إذا حدث أن نجحت الدول في تكوين جيوش الروبوت القادرة على القتال فوق ميدان المعركة بطريقة مستقلة أو شبه مستقلة، فإن مثل هذه الحرب سوف تجري فوق الأرض التي تضم السكان والمنشآت وعناصر الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعات الأطراف المتحاربة وغير المتحاربة، وتستخدم فيها نفس الأسلحة التي بحوزة القوات المسلحة العادية. الفكرة العامة المستخلصة أن قتال الروبوت هو مجرد جزء أو حلقة من سلسلة الحرب التي يشنها البشر ضد بعضهم البعض، مما يعني أنها لا توفر الحل الكلي أو الجزئي لمأزق الحرب بقدر ما تضيف مصدرا آخر لتغذيته وتعميقه؛ تمهد هذه النتيجة الطريق نحو فكرة كسب الحرب بدون قتال المطروحة من قبل سان تزو، التي تعتبر القاعدة المعرفية لتأسيس اتجاه التفكير الاستراتيجي حول نظرية الحرب بدون نيران الأسلحة.

نظرية إدارة الحرب بدون نيران الأسلحة: الحرب العميقة

الجدور المعرفية: لا تختفي الحرب من العلاقات الاستراتيجية الدولية، كما لا يمكن تفادي مأزق الحرب بواسطة كل مقاربات القتال المشار إليها سابقا، لكن يمكن تحييد أدواتها واستبدالها بأخرى التي تجعل الأمم تريح الحروب ضد بعضها البعض دون أن تلجأ إلى القتال بالأسلحة فوق ميدان المعركة؛ الحرب التي يمكن إدارتها دون تدمير البيئة الفيزيائية للمجتمعات ولا التسبب في القتل الجماعي للمحاربين وغير المحاربين، أين تجري بلا أسلحة وإنما على مسارح غير تقليدية مثيرة للاهتمام

وحيوية للأمن القومي والبقاء الاجتماعي والثقافي للأمم وتحدد مصيرها المستقبلي؛ فهي الحرب التي تقاتل فيها الدول بلا نيران الأسلحة. طالما أن هناك طريق مسدود قد وصلت إليه مقارنة كلاوزفيتز حول تدمير قوات العدو وتجريده من سلاحه، فلا بد للأمم أن تبحث عن طرق جديدة لهزيمة أعدائها دون أن تتعرض لدمار شامل أو جزئي؛ عندما لا تستخدم نيران الأسلحة من أحد الأطراف في إدارة الحرب، فإن ذلك سوف يقابل بنفس الأسلوب من قبل الخصم أيضا؛ هذا ما نصطح عليه أيضا «بالحرب العميقة»، التي نعني بها تلك العمليات الفكرية والاتصالية الموجهة نحو تحطيم الروابط السوسولوجية، تبديد قيمة المعاني الرمزية في الوعي الجمعي، وتخطي الدفاعات الثقافية التي تشكل درع الهوية المجتمعية، وتجريد العدو من عناصر قوته الروحية.

الحقيقة أن ليس هناك مقارنة معينة أو طريقة محددة لقتال العدو بدون نيران الأسلحة، لكن هناك مرجعية سياسية تشترك فيها معظم الدول عبر التاريخ الاستراتيجي الطويل ملخصة في السعي الثابت والدؤوب نحو هزيمة الخصوم وإضعاف قوتهم ومنعهم من كسب الشروط التي تجعلهم أقوىاء يهددون مصالحها الحيوية؛ طريقة الوصول إلى هذه الغاية السياسية متعددة وتخضع لفن السياسة أو ما يسمى «بفن الحكم Statecraft»، مفتوحة على التفكير الإبداعي المستمر ومراجعة تاريخ الأمم وتجاربهم حول هزيمة بعضها البعض دون اللجوء إلى القتال. ضمن هذا السياق، نجد أن التخطيط الدفاعي للأمم موجه بواسطة مرجعية استراتيجية مشتقة أصلا من السياسة، ملخصة في العمل على جعل العدو لا يستطيع استخدام أسلحته، إضعاف قدراته المعنوية في القتال، إضعاف الروح الدفاعية، وتقليص دافعيته نحو الحرب. إذا كان أنصار نظرية القوة الجوية قد تحدثوا عن فكرة الشلّ الاستراتيجي⁽⁵⁶⁾ لجعل العدو غير قادر على القتال ولا يرغب في مواصلة المقاومة، الذي ينفذ بواسطة القصف الاستراتيجي المركز؛ فإن المقاربة البديلة تتضمن تثبيط إرادة العدو ابتداءً في شن الحرب أو الاستمرار في التحضير لها دون استخدام نيران الأسلحة أصلا ضده، وذلك عبر سلبه أدوات كسب القوة التي تجعله يتطلع لغزو الآخرين أو تغيير الحدود الجغرافية للدول المجاورة له.

يبدو في الظاهر أن الحرب بدون نيران الأسلحة ضرب من الخيال أو أحلام اليقظة أو حتى الترف الفكري الذي يساور العقل ولا يجد طريقه نحو البيئة الاستراتيجية الفعلية للحرب، لكن في الواقع تمتد الجذور المعرفية والتطبيقية لهذا الأسلوب من

القتال إلى أفكار سان تزو ومن أتى من بعده من المنظرين، وكذلك للمفهوم أيضاً أرضية إمبريقية في تراث العلاقات الاستراتيجية الدولية المعاصرة التي تضمنت مصطلحات مشابهة مثل الحرب الباردة، الحرب النفسية، حرب المعلومات، وغيرها من المفاهيم التي تؤثر عن تلك الحالات المتضمنة مستوى عالي في إدارة حدة الصراع والمنافسة والتوتر بين الدول دون أن تستخدم الأسلحة ضد بعضها البعض. فإذا كانت الحرب الباردة هي إدارة الصراع مع طرف أو مجموعة من الأطراف من أجل منع نشوب الحرب أو انهيار توازن القوى الدولي، فإن الحرب بدون نيران الأسلحة تعني مواصلة القتال بطرق لا يستخدم فيها العنف المسلح من أجل هزيمة العدو كلية أو على الأقل جعله غير قادر على شن الحرب الفعلية أو تهديد المصالح الوطنية الحيوية للدولة. بصفة عامة، يمكن تصنيف الأسس المعرفية لنظرية الحرب بدون نيران الأسلحة ضمن مجموعة النقاط التالية:

1. الحرب انعكاس لفن مهارة القيادة

المهارة العقلية التي تحدت عنها سان تزو تعني العمل على شل قدرة العدو في حشد تأييد مجموعة كبيرة من الأطراف أو بعضها ضد المصالح الوطنية للدولة، أو تأييد قضية أو موقف سياسي يدعم موقعه ومكانته ضمن المعادلة الإقليمية أو الدولية. تظهر مهارة القيادة من منظور سان تزو في إحباط محاولة التتام تحالف معين ضد مصالح الدولة، تحتل هذه المهارة قلب أطروحته حول كسب الحرب بدون الحاجة لنيران الأسلحة، الملخصة في قوله: "إن إخضاع العدو من دون قتال هو أرفع امتياز والعمل العسكري هو أقل الطرق جودة لإخضاع العدو، وتعلوها في المرتبة استراتيجية إفساد تحالف العدو وأفضل من كل هذا استخدام الاستراتيجية لهزيمة استراتيجية العدو، إن الأعظم بين القادة ليس المنتصر في مئة معركة بل ذلك الذي لا يحتاج إطلاقاً إلى القتال لينتصر"⁽⁵⁷⁾. إذا تمعنا في المقتبس السابق، نجد أن سان تزو قد رتب عملية إفساد التحالفات المضادة ومنع التتام أخرى على رأس خاصيات مهارة فن الحرب بدون نيران الأسلحة، ثم يأتي أدنى من ذلك إخضاع العدو بدون قتال؛ السبب في هذا الترتيب أن إفساد الأحلاف يعتمد على المهارة العقلية والخبرة الدبلوماسية والخداع والتضليل، في حين أن إخضاع العدو يمكن أن يتم بواسطة الابتزاز أو التهديد باستخدام القوة المسلحة، مما يعني أنها طريقة أكثر خطورة من الأولى في نشوب الحرب. الحقيقة أن سان تزو ليس هو فقط من نبّه إلى أهمية هذه المقاربة في فن

إدارة الحرب بدون نيران الأسلحة، وإنما نوّه بها أيضا المؤرخ الاستراتيجي اليوناني توسيديدس Thucydides في نفس الفترة التاريخية تقريبا، عندما قال: "لدينا طرق أخرى للقيام بالحرب مثل تشجيع حلفائهم [حلفاء الخصوم] على القيام بالثورة، تعد طريقة جيدة عند القيام بحرمانهم من عائلاتهم التي هي مصدر قوتهم، بناء المواقع المحصنة، القيام بالعديد من العمليات التي لا يمكن أن تكون متوقعة حاليا"⁽⁵⁸⁾.

لقد أثبتت العصور اللاحقة عن عهد تزو وجاهة فكرته حول أهمية وجدوى كسب الحرب بدون قتال عبر تفكيك الأحلاف المضادة، لأن العدو إذا قاتل ضمن تحالف فإنه من المحتمل أن يكسب الحرب على العكس إذا قاتل وحده فإن هزيمته تكون على الأقل سهلة، كما أنه يكون قابلا للخضوع والابتزاز والإكراه بالأدوات غير العسكرية؛ فقط الذين ينجحون في أداء مثل هذه المهمة المعقدة هم الذين سماهم «بالقادة الماهرين القدامى»، الذين يستخدمون العقل والحكمة والحنكة والخبرة السابقة أكثر من الأسلحة في جعل أعدائهم ينهزمون أمامهم بدون قتال فوق ميدان المعركة. الاعتبار المأخوذ في الحسبان هنا أن قوة الحرب بدون نيران الأسلحة تكمن في كسر دافعية القتال لدى الخصم، بشكل يصبح لا يبحث عن خيارات شن الحرب أو الإعداد لها أو الميل نحو السيطرة على أراضي الآخرين؛ الأكثر أهمية من ذلك، أن يؤدي نجاح كسر دافعية المقاومة لدى العدو إلى خضوعه واستسلامه. الحرب فن بالنسبة لسان تزو، تتجلى مهارة إدارتها في عدم استخدام الأسلحة لجعل الأعداء مسالمين وبعيدين عن حدود الدولة، عدم وجود الحاجة لتدمير قواتهم فوق ميدان المعركة وإنما إخضاعهم لإرادتك السياسية وجعلهم منسجمين مع مصالحك الأساسية عبر تبديد دوافع المقاومة لديهم أو الإعداد لشن الحرب من جديد؛ على افتراض منه أن «القتال والانتصار في جميع المعارك ليس هو قمة المهارة، التفوق الأعظم هو كسر مقاومة العدو دون أي قتال»⁽⁵⁹⁾.

فن الحرب علم قائم بذاته، وضع أسسه الأولى سان تزو الذي استخلصها بدوره من تجارب وأقوال القادة الحكماء القدامى، إنه قائم على تمجيد المهارة العقلية والنفسية والمعرفة العلمية والخبرة في هزيمة العدو بدل القوة على استخدام السيف فوق ميدان المعركة وتدمير قوات العدو؛ تكون الأولوية في هذا الفن لكل المقاربات والخيارات والطرق المساعدة على الإيقاع بالعدو، فهي قائمة على الخداع والمراوغة والمناورة والتضليل والتقييم العقلي الثابت والشامل للموقف العام الذي عليه القوة

العسكرية الذاتية وقوة العدو، على افتراض أن «الحرب [التي] لا تستطيع كسبها، حاول تجنبها والجأ للمفاوضات قدر الإمكان» حتى لا تعطي فرصة للعدو تدمير قواتك والسيطرة على أراضيك. وفق هذا المنطق، الحرب لا تكسب في المقام الأول بقوة الساعد والمسك بمقبض السيف، وإنما بواسطة مهارة العقل المشفوعة بالذكاء والخبرة والقدرة على التقييم الجيد لعواقب المواقف والقرارات، بالإضافة إلى الأناة وعدم الاستعجال؛ فإذا طُرح خياران أمام القائد، يتضمن الأول إمكانية كسب الحرب بضربة واحدة، والثاني وجود إمكانية كسب الحرب بخداع العدو دون الحاجة لقتاله، فإن القائد الحكيم من منظور سان تزو سوف يختار الثاني لأنه بدون كلفة وآمن؛ على افتراض منه أن «الحرب لا تكسب بالقوة بل بالخداع وعدم الاستعجال»⁽⁶⁰⁾.

يمكن أن تشكل كل الأفكار المقترحة من قبل سان تزو حول فن كسب الحرب بدون قتال أرضية جيدة حول بلورة مقاربة فعالة لمواجهة التحديات المطروحة بواسطة مأزق الحرب، المنبثق من التطور المأساوي لنيران الأسلحة الحديثة؛ على اعتبار أن هذه الأخيرة (كما سبقت الإشارة إلى ذلك) قد أصبحت لا تؤدي وظيفة هزيمة العدو وتجريده من عناصر قوته المسلحة، وإنما تحقق التدمير الجماعي لكلا الطرفين المتحاربين وكل الذين يعيشون في جوار منطقة الحرب.

2. الدفاع بدون نيران الأسلحة

شكلت نظرية تزو حول فن الحرب الأرضية النظرية للتفكير حول بلورة منظور كسب الحرب بدون نيران الأسلحة الذي يحقق الغاية السياسية الملخصة في جعل العدو بعيداً عن حدود الدولة ومصالحها بدون الحاجة لقتاله. ضمن هذا السياق التحليلي، يمكن طرح مفهوم آخر منسجم مع منظور كسب الحرب بدون قتال وهو «الدفاع بدون نيران الأسلحة Fireless Defense»، الذي يعني تعبئة عناصر القدرة السياسية، الاقتصادية، الثقافية، الاجتماعية، والدبلوماسية وتوجيهها مجتمعة نحو تعزيز الموقف الدفاعي للدولة من أجل حماية القيم الحيوية للأمة؛ أو هو استراتيجية استخدام الأفكار وقوة الإقناع والقوانين وكل ما يدخل ضمن القوة غير المادية أو اللينة من أجل تعبئة المجتمع ضد الاستراتيجية الخبيثة للعدو. تنصدر مهام المحافظة على الإقليم مندماً، تعزيز التماسك السوسيو-ثقافي للمجتمع، وتعميق مفهوم الأمة مقابل الأمم الأخرى، أجندة الدفاع بدون نيران الأسلحة. يحمل هذا المفهوم معنى منهجي عندما يستخدم كمفردة لتحليل الشؤون الاستراتيجية، وآخر عملي عندما ينظر له

كطريقة لتعبئة مجموع موارد الأمة البشرية والرمزية والمادية غير العسكرية للدفاع بطريقة لينة عن القيم الوطنية الحيوية من أجل تحقيق غاية سياسية كبرى وهي إبقاء الدولة والمجتمع متلاحمين.

يستلزم هذا المفهوم النظر إلى الدفاع على أنه لا يشمل فقط توظيف القوة العسكرية لأغراض التباري الاستراتيجي مع العدو، وإنما يجب أن يتوسع ليشمل عملية دمج القوى السياسية والمجتمعية ضمن المهام الدفاعية، وإضفاء القيمة الاستراتيجية الحيوية على الدور الذي يقوم به أولئك الذين لا يرتدون البزة العسكرية ولا يحملون الألقاب والنياشين ولا الأسلحة، الذين يرابطون على خطوط الدفاع العميقة والمتقدمة، يدافعون عن الأمة بالطرق والأساليب والأدوات التي تلائم تموضعهم على تلك الجبهات، مثل الكلمة، الخطابة، حمل القلم، إنتاج الفكرة، القدرة على الإقناع، التسويق السياسي، تأليف الكتاب والمقال والرواية، الإنتاج السينمائي، كتابة العمود الصحفي، التخريده في مواقع التواصل الاجتماعي، التنظير الأكاديمي، التفكير الاستراتيجي، تطوير الثقافة، تنقيح وتجديد وإعادة صياغة الاستراتيجية، إحياء التاريخ المجيد والملاحم الوطنية، تصحيح المواقف السياسية، شرح وتوضيح وتحليل السياسة العامة والأهداف الوطنية للأمة، توجيه برامج الشاشة التلفزيونية، ترشيد المحتوى الإعلامي للصحيفة، تعزيز دور المدرسة ومؤسسات التعليم كمصادر للمحافظة على القيم والإبداع العلمي والتعهد بالكفاءات الوطنية، دور المسجد كمصدر روحي وإلهام حضاري، الرياضة كتعبير عن الإنجاز الوطني، وكل المجالات الاجتماعية التي يمكن أن تتاح كجبهات محتملة للدفاع عن القيم الوطنية الحيوية للأمة. لا يتطلب هذا النوع من القتال نيران الأسلحة بقدر ما يستلزم التفكير الإبداعي للأفكار والمقاربات والأساليب التي تكون موجهة أساسا نحو تحطيم أو عطب أو شل عمل استراتيجية العدو، وفي نفس الوقت تأمين المصالح الحيوية للدولة داخل حدودها، في الجوار الإقليمي، أو فيما وراء البحار.

تشكل المخاطر المطروحة بواسطة مأزق الحرب القاعدة الإمبريقية وإحدى المحركات الرئيسية لتطوير منظور الدفاع بدون نيران الأسلحة من أجل تحسين القدرات الدفاعية غير المكلفة، وتخطي كل الصعوبات والتحديات الممكن توقعها كنتيجة للاستخدام المحتمل للأسلحة ذات القتل الجماعي والتدمير الشامل. يقضي الافتراض العام الذي يقوم عليه هذا الاتجاه في التفكير الاستراتيجي بأن أفضل طريقة للدفاع، بناء خطوط دفاعية خارج الحدود، التي ليست بالضرورة أن تكون عسكرية

محضة؛ تمثل الخطوط الدفاعية غير العسكرية خارج الحدود جزءاً من «نظرية الدفاع بدون نيران الأسلحة Fireless Defense Theory»، التي تستهدف عناصر التهديد غير المادية: العسكرية وغير العسكرية الموجهة عادة نحو تدمير القدرات الوطنية العميقة.

يشير مفهوم «الدفاع بدون نيران الأسلحة» إلى كل المقاربات غير القتالية المستخدمة لأغراض تعزيز الأمن القومي عبر خطوط طويلة ممتدة من مركز الإقليم الوطني إلى آخر نقطة توجد فيها مصالح الدولة، أو يحتمل أن تكون مصدراً لإنتاج أشكال التهديد العسكري وغير العسكري، المادي وغير المادي. تتضمن المفهومة الاصطلاحية مصفوفة من الأفكار، الاستراتيجية، المذاهب، الأنشطة، وأساليب التفكير التي تتخطى الحدود المادية للدفاع من حيث المجال الجغرافي، المحتوى العملي، الأدوات، والطرق والأساليب غير المحددة؛ الخاصية التي تجمع بين كل هذه العناصر هي ضرورة وجود القابلية الإبداعية التي تمكّن من تحقيق التفوق النوعي على ما عند الأعداء أو الخصوم الفعليين أو المحتملين. حقل تفاعل نظرية الدفاع بدون نيران الأسلحة محدد في إسقاط القدرات والمقاربات فوق مسرح العقول وسيكولوجية الشخصية وأساليب التفكير والمباريات الذهنية وإدارة الصراع الرمزي، على افتراض أن هدف السياسة محدد في ربح معركة السيطرة على العقل والقدرة على توجيه الرأي العام والتلاعب بالأفكار والاتجاهات، من أجل هزيمة العدو بدون قتال فوق بيئته الوطنية، وعلى مستوى مسرح عقول ونفوس الرأي العام الإقليمي والدولي. من هذا المنظور، يستلزم الدفاع بدون نيران الأسلحة وجود مقاتلين من نوع خاص يتمتعون بالكفاءات الماهرة في مجالات دقيقة تتعلق بصناعة الأفكار، قراءة العقول، رسم الخرائط المعرفية في الأذهان، فهم وتوجيه الإدراكات، بناء القدرات الذاتية في الإقناع والتأثير، فهم الثقافات الأخرى، تحليل أنماط التفكير، تحليل الرموز المعرفية، المعرفة بعادات وعلاقات ونمط الشعوب في الحياة، تحليل الشخصية، وغيرها من المهارات الاستثنائية الفريدة التي تكون أدوات وأساليب المقاتلين على خطوط الدفاع المتقدمة وغير الثابتة فوق ميدان معركة العقل وسيكولوجية الشخصية.

يتمظهر الإبداع الدفاعي بدون نيران الأسلحة في إنتاج الأفكار الخلاقة وأساليب التفكير الاستراتيجي غير المألوفة، التي تكون فعالة في الإطاحة بقدرات العدو على الهجوم أو تحطيم دوافع المبادرة بالتهديد قبل أن يبدأ بذلك، يجب أن يتم ذلك

داخل وطنه قبل أن يتمدد خارج حدوده. تشتق هذه المقاربة معرفيا من الثقافة الاستراتيجية الرومانية في قتال الخصوم بدون شن حرب، المحددة من قبل كولن جراي في: «فن الحكم والاستراتيجية [الذي] يستلزم خليطا من جمع الاستخبارات، الرشوة، أخذ الرهائن، ورشوة البرابرة لاستخدامهم ضد البرابرة»⁽⁶¹⁾. صحيح أن مثل هذه الطرق أصبحت تقليدية ومن مهام عمل الاستخبارات، إلا أن الوصفة الجديدة يجب أن تكون صامته وليئة وأكثر فعالية في هزيمة العقول، إحباط الإرادة، كسب الرأي العام في مقابل تأليه على الخصوم، تعزيز زخم القبول المجتمعي لطريقة عمل السياسة الدفاعية الوطنية داخل المجتمعات الأخرى؛ وكل ما من شأنه أن يعزز أمن المصالح الوطنية وقابلية التعاون المشترك مع الحلفاء والأصدقاء حول مجالات القضية المختلفة.

تقضي مفهومة الدفاع بدون نيران الأسلحة بأن مهام الدفاع يجب أن تتوسع إلى ما وراء غايات البقاء القومي للدولة وحماية المصالح الوطنية ضد التهديدات العسكرية المباشرة، لتشمل حماية البقاء المتناسك للمجتمع متحدا داخل إقليم الدولة، ومتوصلا ومتلاحما عبر مناطق انتشاره في العالم، من أجل دعم القوة المجتمعية في إنتاج شروط التأثير الاستراتيجي، التي تتقدمها مسألة تحقيق قوة الإنجاز والنجاح المجتمعي المتعدد القطاعات.

ضمن هذا السياق العام، تهتم نظرية الدفاع بدون نيران الأسلحة بكل مقاربات صيانة وتقوية التماسك المجتمعي ضد مصفوفة التهديدات الثقافية، التشكيك في الانتماء الوطني، صحوه الخلافات التاريخية، تغذية الصراع حول خلافات الهوية، الانقسامات العرقية واللغوية، تهشيم الثقة المجتمعية بين الجماعات المختلفة، وتبديد ثقة المجتمع في مؤسسات الدولة. الحقيقة أن كل العمليات الخطيرة وشبكة التهديدات الجدية السابقة الذكر وغيرها هي متغيرات مستقلة رئيسية تساهم في خلق دافعية توسيع مفهومة الدفاع لتشمل المهام غير العسكرية، التي يجري تنفيذها فوق مسارح العمليات غير التقليدية مثل العقل، الاعتقادات، الاتجاهات، الثقافة، السيكلوجية، التماسك المجتمعي، الروابط السوسولوجية، الهوية والانتماء الوطني، ومفهومة الأمة التي تشتمل بدورها على العلاقات السياسية والمجتمعية والروابط الروحية والمعنوية بين المجتمع والدولة؛ المهمة الأساسية هي الدفاع بمقاربات جديدة فوق كل مسارح العمليات السابقة الذكر.

باختصار، يعني الدفاع بدون نيران الأسلحة مواجهة أشكال التهديد التي لا تستدعي الاشتباك الفعلي الكبير مع قوات العدو، وإنما إحباط التهديدات بواسطة أنشطة الاستخبارات، الأنشطة الإعلامية الموجهة بطريقة خفية، التفكير الاستراتيجي، البحث العلمي وإبداع التكنولوجيا، القوة السيبرانية، وغيرها من الأنشطة المدنية والعسكرية التي تستهدف تقويض استراتيجية العدو وقدراته الموجهة نحو إضعاف مصادر قوتنا الوطنية وتهديد مصالحنا الحيوية؛ إنه يشمل كل الأفعال والأقوال والأفكار المساعدة على إحباط هجمات العدو غير العسكرية وأنشطته غير القتالية قبل أن تخترق البيئات الوطنية اللينة وتقوض تماسك القوة الرمزية للأمة.

إن هذه النظرية موجهة نحو احتواء مصادر التهديد غير العسكرية بالمفهوم التقليدي، وذلك بواسطة الأساليب والأدوات التي لا يكون الاعتماد فيها على القوة المسلحة في المقام الأول، وإنما يكون التعويل على عناصر القوة الوطنية غير العسكرية القادرة على احتواء مخاطر مثل الجريمة المنظمة، تجارة المخدرات، تجارة الأسلحة، دعم الحركات الانفصالية، التطرف والإرهاب، الحملات السيبرانية لبث الفوضى، الذباب الإلكتروني، الأنشطة الدبلوماسية المعادية، نفوذ القوى المعادية والمنافسة، صناعة الإدراكات المعادية، تشكيل الاتجاهات النفسية المعادية، الإشاعات، وكل الأنواع الأخرى المحتملة أو الفعلية التي تستهدف تماسك الأمن القومي في منظوره الموسع. كل مصادر التهديد السابقة الذكر هي من حيث الجوهر مقاربات وأساليب العدو، يتبناها كخيارات لتجنب آثار مأزق الحرب وإدارة المنافسة الاستراتيجية بدون الحاجة للقتال فوق ميدان المعركة.

كل الأطراف أصبحت واعية بالآثار السلبية لمأزق الحرب وأن ليس كل مصادر تهديد الأمن القومي يجب أن تواجهه بالقوة المسلحة الخشنة، ومن ثم ضرورة البحث عن مقاربات بديلة لإدارة الحرب ضد بعضها البعض، أحد هذه الخيارات المتاحة محدد في الدفاع بدون نيران الأسلحة الموجه نحو احتواء نوع من المخاطر ذات الأبعاد المجتمعية والقوة الرمزية للأمة، المصففة من أقلها خطورة: تبيد الثقة بين المجتمع والدولة، إلى أكثرها خطورة: تقويض الروابط السياسية والاجتماعية والرمزية بين الدولة والمجتمع، تغذية المعادلة المميتة التي يقاتل فيها المجتمع مؤسسات الدولة، دعم ظهور التصدعات السوسولوجية العميقة داخل المجتمع، تغذية تراجع

سيطرة الدولة على مكونات المجتمع وأقاليمه، تجنيد معارضة مسلحة في الخارج، وتبقى القائمة مفتوحة.

الحقيقة أن منظور الدفاع بدون نيران الأسلحة ليس موجها حصريا للتعامل مع مأزق الحرب فقط، وإنما هو مبني على رؤية أوسع لاحتواء المخاطر الأمنية التي تواجه الأمن القومي للدولة ولا تستلزم استخدام نيران الأسلحة فوق ميدان المعركة وفق الطريقة التقليدية للحرب؛ يتميز هذا المنظور برؤية أوسع تشمل شبكة مركبة من التهديدات والخصوم المدفوعين بمقاربات مختلطة، تتضمن عمليات الابتزاز، تفويض فعالية الدبلوماسية، إضعاف النفوذ، وتقليل المصالح. وفق منطق هذه الأطروحة، فإن خصوم الدولة -وان كانوا لا يستخدمون نيران أسلحتهم- لا يتسامحون مع الاستراتيجية الهشة، القيادة الضعيفة، والدولة المهملة أو المتهاونة مع أمنها القومي. يستغل الخصوم كل الفرص ويعملون بكل جهد لاختراق أجهزة الدولة، ويغتنمون الفجوات الأمنية من أجل ممارسة مصفوفة الأنشطة التي تخدم مصالحهم؛ كأنشطة المافيا العالمية لغسل الأموال، تبديد مصادر ثروة الدولة، سرقة الموارد، التلاعب بأسعار النفط في الأسواق العالمية، وإفشال أو تعطيل المشاريع الوطنية التي يرونها مهددة لمصالحهم كشركات أو دول. يبدأ الدفاع بدون نيران الأسلحة بالوعي الاستراتيجي حول طبيعة التهديدات، وصياغة المقاربات الدفاعية المناسبة لاحتوائها، أو على الأقل تلطيف آثارها على الأمن القومي للدولة ومصالحها الحيوية عبر العالم؛ إنه يتطلب الوعي الثابت والإدراك الموسع للذات يخلقان شروط التفكير المناسب والخلاق حول السياسة الدفاعية الفعالة، بنفس مستوى خطورة أنشطة الخصوم وبراعة استراتيجيتهم في العمل.

3. أولوية هزيمة استراتيجية العدو بدل هزيمة قواته المسلحة

الأطروحة النظرية الثالثة التي يمكن أن تُتخذ كجزء من الأرضية العامة لتأسيس نظرية إدارة الحرب بدون نيران الأسلحة من أجل تخطي آثار مأزق الحرب، ملخصة في ما يسمى «بهزيمة استراتيجية العدو»، المشتقة معرفيا من نظرية فن الحرب لسان تزو، الذي اعتبرها مهمة أكثر تعقيدا من مواجهة العدو بنصال السيوف فوق ميدان المعركة، وذلك عندما قال: «هزيمة العدو دون قتال تتطلب مهارة أكبر من المهارة المطلوبة لتحقيق النصر في ميدان المعركة»⁽⁶²⁾؛ لأنها تجري فوق مسرح تنافس القدرات القيادية والعقلية والتجربة السابقة والقدرة على استغلال الامتيازات المتاحة

مجانا في البيئة الاستراتيجية مثل الجغرافية، الزمن المناسب، والمناخ من أجل كسب الحرب بدون قتال وتحقيق أغراض الدفاع الوطني دون استخدام نيران الأسلحة. إذا أردنا تقديم تعريف اصطلاحى لمفهوم «هزيمة استراتيجية العدو»، فإنه يمكن القول أنها مجموعة القرارات والأعمال والأنشطة الموجهة نحو إعاقة أو إبطال عمل استراتيجية العدو، أو هي صياغة المنظورات العلمية وتصميم المقاربات العملية المضادة التي تؤدي إلى شل قدرات العدو في الوصول إلى غاياته السياسية فوق مساح التباري الاستراتيجي المختلفة؛ فهي تعني تبني الاستراتيجية المضادة لما عند العدو التي تحول دون تحقيقه لتفوق معين، بناء تحالف، توسيع نفوذ، أو تهديد مصالحنا؛ المؤشر الإمبريقي المساعد على التأكد من عمل هذا المفهوم هو فتح الطريق أمام عمل استراتيجيتنا وإبطال أو شل عمل استراتيجية العدو. يتضمن هذا المفهوم دوافع دفاعية وأخرى هجومية، تتحدد الأولى في منع أو إبطال كل الأنشطة المعادية الموجهة لشل عمل استراتيجيتنا، في حين تتضمن الثانية كل الأعمال والمواقف والأنشطة المضادة لعمل استراتيجية العدو وإحباط مساعيه نحو الوصول إلى أهدافه السياسية أو تحقيق أي تقدم أو امتياز يضع مصالحنا تحت التهديد الخطير. وفق هذا المنظور، فإن مهمة هزيمة استراتيجية العدو تمتد لتشمل كل السياسات والقرارات والمواقف والأنشطة المؤدية إلى شل قدراته على التفكير، التخطيط الجيد، وإحباط تنفيذ أنشطته العدائية؛ كما تشمل مهمة حرمانه من استغلال قدراته الخاصة أو الوصول إلى موارد حيوية جديدة تعزز قدراته الدفاعية أو الهجومية. ليس هذا فحسب، وإنما تتضمن هذه المقاربة أيضا تفكيك أو على الأقل إضعاف تحالفات العدو ومن باب أولى منع التحاق حلفاء جدد إلى صفه، من أجل جعله يقاتل وحده فوق ميدان المعركة في حالة وقوع الحرب، أو يدافع بمفرده فوق مسرح التباري الدفاعي الكبير.

الاعتبار الاستراتيجي الذي يجب أن يوضع في الحسبان -المقترح من قبل أنصار النظرية الواقعية/الواقعية الجديدة- أن الدول تتصرف بطريقة متشابهة مع بعضها البعض، ومن ثم كل طرف سوف يتبنى مبدأ هزيمة استراتيجية خصمه دون الحاجة إلى الاستخدام الفعلي لنيران الأسلحة، التي هي عبارة عن مباراة فوق مسرح كبير ينخرط فيها متخصصون من القطاعات المختلفة؛ فإذا تخلى أو أهمل أو تراخى أحد الأطراف في العمل بمبدأ هزيمة استراتيجية العدو، فإن الآخر سوف لا يفعل وعلى الأول أن يدفع ثمن قراره أو سلوكه الخاطئ. كل طرف يسعى إلى هزيمة استراتيجية خصمه بنفس الأدوات، ومن ثم يتحدد مجال المنافسة حول نظم التجنيد والتدريب

والبحث عن العناصر الأكثر كفاءة ومهارة وذكاءً في العمل تحت الظروف القاسية، إبداع الأساليب الخلاقة، تطوير المقاربات غير المسبوقة، والقيام بالمهام الأكثر خطورة من أجل الإطاحة باستراتيجية الخصم. بمعنى آخر، التفوق في التباري الاستراتيجي يكون إلى جانب من يستطيع الوصول إلى القدرات الفردية الموهوبة داخل مجتمعه ومؤسساته التي تتولى القيام بمثل هذه الأعمال الدقيقة والخطيرة، وأيضاً من يملك نظام الاستخبارات الأكثر تطوراً وكفاءة في تدريب وتجنيد العملاء من المواطنين والأجانب للقيام بمهام تخريب استراتيجية الخصم وتعطيلها عن العمل.

4. أطروحة عمليات المعلومات

الأطروحة الأخرى المساهمة في بلورة الإطار النظري العام لاتجاه التفكير حول فن إدارة الحرب بدون نيران الأسلحة، ملخصة في ما يسمى «بعمليات المعلومات Information Operations» التي نوظفها بالتبادل مع مفهوم «الحرب الرمزية»، التي تعني تركيز اهتمام التفاعل القتالي على مجال الأفكار والثقافة والاتصال وكل ما له صلة بصياغة أساليب العقل في التفكير، الإدراك، التحليل، وبلورة خيارات صناعة القرار؛ إنها تتعلق بجهود ما اصطلح عليه كريستوفر بول Christopher Paul بربح «معركة العقول والقلوب Battle for Hearts and Minds». لقد طُرح مفهوم «عمليات المعلومات» لأول مرة من قبل «القيادة والسيطرة القتالية»⁽⁶³⁾ Command and Control Warfare في الجيش الأمريكي خلال منتصف تسعينيات القرن العشرين، ضمن جهود تطوير استراتيجية كبرى لإدارة حرب الأفكار، على افتراض أن السيطرة الحقيقية على العالم التي تضمن أمن مصالح الولايات المتحدة تبدأ بالقدرة على التحكم في عقول وقلوب مجتمعات دول العالم، عبر استغلال امتيازات وقدرات تفوق الولايات المتحدة في الإعلام والبرق الإذاعي والتلفزيوني اليومي على مدار الساعة والنشر السيبراني للمعلومات. من الناحية الاصطلاحية، عرّف «قاموس وزارة الدفاع للجيش والمصطلحات ذات العلاقة Department of Defense Dictionary of Military and Associated Terms» في الولايات المتحدة، مفهوم «عمليات المعلومات» بأنها: «الاستخدام المندمج للقدرات الأساسية للقتال الإلكتروني، عمليات شبكة الحاسوب، العمليات النفسية، الخداع العسكري، وأمن العمليات، في تناغم مع الدعم الخاص والقدرات ذات العلاقة، للتأثير، تمزيق، إفساد، أو غضب عدائي للإنسان وصناعة القرار الآلي مع حماية الخصوصية»⁽⁶⁴⁾. في مناسبة أخرى، عرّف

الجيش الأمريكي «عمليات المعلومات» بأنها: «الاستخدام المندمج للقتال الإلكتروني، عمليات شبكة الحاسوب، والعمليات النفسية للتأثير، تمزيق، وإفساد معلومات الخصم وأنظمة المعلومات عند الدفاع عن الذات»⁽⁶⁵⁾.

حتى ولو أن التحديد الاصطلاحي لهذا المفهوم قد شمل عددا من العمليات القتالية المتغايرة، إلا أنها تشترك في خاصية عدم استخدام نيران الأسلحة، إنها تجري فوق مسارح متعددة لا تتطلب الاستخدام الفعلي للقوة المسلحة الخشنة بقدر ما تتطلب إدارة العمليات غير المادية للحرب مثل إحباط المعنويات، الخداع والتضليل المعلوماتي، تهشيم تماسك القدرات النفسية والانفعالية، تشويه الإدراكات، تمزيق بنيات صناعة القرار الحيوية لدى قيادة العدو، وغيرها من الأنشطة التي تستهدف القوة الرمزية والمعنوية في دولة العدو؛ مما يعني بطريقة أخرى، أن الحرب الحديثة لا تتفاعل فقط ضمن المجال المادي لميدان المعركة وإنما تشمل المجالات الأخرى غير المادية التي يمكن أن تدار بطريقة فعالة بواسطة استغلال القدرات المتاحة عبر تكنولوجية الاتصال والرقمنة والقوة السيبرانية والإعلامية وحتى الثقافة العامة للمجتمعات. إن هذه الأطروحة (من المنظور الأمريكي) مؤسسه على الافتراض العام المقترح من قبل كريستوفر بول بأن السيطرة على العقول والقلوب أهم من السيطرة على الأرض، عبر نشر مفاهيم «تفوق القوة الأمريكية»، تلميع «أسلوب الحياة»، أولوية «المصلحة الوطنية»، فعالية «الردع الاستراتيجي»، قدرة «الرد الحاسم»، «التدخل السريع»، «الهيمنة السريعة»، وغيرها من المفاهيم التي يتم تسويقها عبر العالم بواسطة أدوات الدعاية المختلفة. هناك الكثير من مجالات التفاعل المشكّلة لمستويات إدارة ميدان معركة عمليات المعلومات، محددة من قبل كريستوفر بول في خمسة مستويات هي: «العمليات النفسية، الخداع العسكري، العمليات الأمنية، القتال الإلكتروني، وعمليات شبكات الحاسوب»⁽⁶⁶⁾؛ التي هي مشتقة أساسا من المفهومة الاصطلاحية والعملياتية للمفهوم.

إحدى مظهرات عمليات المعلومات ما اصطلح عليه كريستوفر بول بربح معركة «القلوب والعقول Hearts and Minds»، التي تكون استراتيجيتها وتكتيكاتها ذات محتوى فكري وعقائدي وإيديولوجي ورمزي، لكن تكمن فعاليتها في الأدوات المستخدمة لإدارتها وهي تكنولوجية الاتصالات الرقمية، الحوسبة، وشبكات الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي؛ تشكل كل هذه الأدوات اليوم مصادر إدمان الاستخدام العالمي، التي يمكن أن توظف كمسرح تسويق فعال للأفكار والرموز والمعاني. بطريقة أخرى، الطرف الذي يتحكم في إبداع وتطوير تكنولوجية هذه

الأدوات، هو المتوقع أن يحتفظ بسيطرته على حقل معركة القلوب والعقول، ويبقى نفوذه مستمرا على الآخرين.

الخاتمة

تمثل الحرب بدون نيران الأسلحة المستوى الأعلى في مهارة وفن إدارة المنافسة مع الخصوم على المستوى الاستراتيجي والعملياتي، ينخرط في إدارتها أعداد كبيرة من الأشخاص المتخصصين في مجالات المعرفة المتعددة تشمل العلوم التقنية والاجتماعية والإنسانية والدينية مثل علم الحوسبة، تكنولوجيا الاتصالات الرقمية، الذكاء الاصطناعي، تكنولوجيا الفضاء، علم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي؛ هذه مجرد أمثلة من فروع المعرفة المرشحة لأن تكون ميدانا لتجنيد أصحابها والزج بهم في معارك هذا النوع من الحرب.

الحرب بدون نيران الأسلحة مؤسسة على المفارقة الاستراتيجية المطروحة بواسطة مأزق الحرب المتضمن عدم تخلي الدول عن الحرب مع ظهور إمكانية حدوث الإبادة الشاملة والقتل الجماعي لأطراف النزاع؛ ومن ثم، تظهر القيمة الاستراتيجية والأهمية المنهجية والضرورة النظرية لهذا النوع من الحرب. لقد طرحت التكنولوجيا المعقدة الجديدة تحديا كبيرا أمام الأمم بواسطة تصعيد القوة النارية للأسلحة الجديدة بشكل متنامي مع مرور الزمن، وفي نفس الوقت فتحت أفق البحث في خيارات بديلة عن الحرب التقليدية المشخصة في هذا المقال ضمن مفهوم الحرب بدون نيران الأسلحة. النتيجة العامة المستخلصة من هذا المقال ملخصة في أن للحرب مظهران، أحدهما مادي يتفاعل فوق ميدان المعركة بواسطة نيران الأسلحة، وآخر كامن أو عميق يفعل بواسطة القوة الرمزية والفكرية والاتصالية ومستمر عبر الزمن يجري فوق مسرح العقل والسيكولوجية ■

الهوامش

1. كارل فون كلاوزفيتز، عن الحرب، تر. سليم شاكر الإمامي، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997)، ص. ص. 39-838.
2. نفس المرجع السابق، ص. 174.
3. Colin S. Gray, War, Peace and international Relations : An Introduction to Strategic History, (London and New York : Routledge Taylor & Francis Group, 2007), pp.282-84.
4. Ibid., pp.27-28.
5. Colin S. Gray, Strategy For Chaos : Revolutions in Military affairs and The Evidence of History, for. Williamson Murray (London : Frank Cass, 2005), pp. 80-88.
6. Hew Strachan, "The Lost Meaning of Strategy," in Strategic Studies: A Reader, ed. Thomas G. Mahnken and Joseph A. Maiolo, (New York : Routledge, 2008), p. 423.
7. محمد طه بدوي، مدخل إلى علم العلاقات الدولية، (بيروت: دار النهضة العربية، د. ت.)، ص. 37.
8. سعد حقي توفيق، مبادئ العلاقات الدولية، ط. 1 (عمان: دار وائل للنشر، 2000)، ص. 211.
9. Colin S. Gray, War, Peace and international Relations : An Introduction to Strategic History Op. Cit., pp.282-84.
10. Collin S. Gray, Op. Cit., p.03.
11. Barry Buzan, People, States, and Fear : The National Security Problem in International Relations, (London: Wheatsheaf Books, 1983), pp. 158.
12. Ibid., pp. 156-57.
13. Ibid., p. 164.
14. John J. Mearsheimer, The Tragedy Of Great Power Politics, (New York, London: W. W. Norton & Company, 2003), pp. 33 - 34.
15. Barry Buzan, "The Level of Analysis Problem in International Relations Reconsidered", In International Relations Theory Today, ed. Ken Booth and Steves Smith, (Cambridge: Cambridge Polity Press, 1995), pp. 190-99.

16. Bernard Brodie, "Strategy as a Science", in Strategic Studies: A Reader, ed. Thomas G. Mahnken and Joseph A. Maiolo, (New York : Routledge, 2008), pp. 08-17.
17. Barry Buzan, People, States, and Fear : The National Security Problem in International Relations Op. Cit., p. 164.
18. محمد طه بدوي، مرجع سبق ذكره، ص. 37.
19. Graham T. Allison, "Conceptual Models and the Cuban Missile Crisis", in International Relations Theory : Realism, Pluralism, Globalism, ed. Paul R. Viotti and Mark V. Kauppi, 2nd ed. (New York: MacMillan Publishing Company, 1993), pp. 344-52.
20. عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 7 أ.ج. (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، 1: 151-55.
21. كارل فون كلاوزفيتز، مرجع سبق ذكره، ص. 103.
22. نفس المرجع السابق، ص. 105.
23. نفس المرجع السابق، ص ص. 105 - 107.
24. Colin S. Gray, Op. Cit., pp.240-42.
25. Dean Cheng, "Spacepower in China", in Toward a Theory of Spacepower, ed. Charles D. Lutes and Peter L. Hays, Vincent A. Manzo, Liza M. Yambrick, and M. Elaine Bunne ([USA]: Institute for Strategic Studies, National Defense University, n.d.), pp.467-71.
26. Robert R. Tomes, US Defense Strategy from Vietnam to Operation Iraqi Freedom : Military innovation and the new American way of war, 1973-2003, (New York: Routledge Taylor & Francis Group, 2007), p. 89.
27. Robert R. Tomes, Op. Cit., pp. 01-04.
28. Ibid., p. 90.
29. Thomas K. Adams, The Army after Next : The First Postindustrial Army, (London : Praeger Security International, 2006), p. 16.
30. Thomas M. Kane and David J. Lonsdale, Understanding Contemporary Strategy, (London and New York : Routledge Taylor & Francis Group, 2012), pp. 74-77.
31. Michael E. O'Hanlon, The Science of War: Defense Budgeting, Military

- Technology, Logistics, and Combat Outcomes, (Princeton and Oxford: Princeton University Press, 2009), p. 177.
32. Thomas K. Adams, Op. Cit, p. 36.
33. Mukund R. Patel, Spacecraft Power Systems, (United States of America: CRC Press, 2005), p. 04.
34. Bledwyn E. Bowen, Spacepower and Space Warfare: The Continuation of Terran Politics by Other Means, (Cymru: Aberystwyth University, 2015), p. 71.
35. Adam P. Jodice and Mark R. Guerber, "Space Combat Capability . . . Do We Have It?", Journal Air & Space Power, Vo. XX, No. 2. (Summer 2006), p. 82.
36. Ibid., p. 85.
37. ريتشارد ريتير وديفيد مارتين، "الدفاع الصاروخي الإقليمي في منطقة الخليج العربي: الاعتبارات المتعلقة بالإنذار المبكر والاستطلاع وإدارة المعارك والقيادة والسيطرة والاتصالات والحواسيب والاستخبارات"، في الدفاع الجوي الصاروخي ومواجهة انتشار أسلحة الدمار الشامل وتخطيط السياسة الأمنية، تح. جاكلين ديفس، شارلز بيرى، وجمال سند السويدي (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2000)، ص 118.
38. America's Military: Preparing for Tomorrow, Joint Vision 2020, Available on <http://pentagonus.ru/doc/JV2020.pdf>, date figure 22/09/2019, p. 15.
39. ريتشارد ريتير وديفيد مارتين، مرجع سبق ذكره، ص 118.
40. Colin S. Gray, Op. Cit., pp.282-84.
41. Ibid., pp.118-19.
42. Thomas K. Adams, Op. Cit., p. 25.
43. ناصيف يوسف حتى، النظرية في العلاقات الدولية، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1985)، ص 136. 137.
44. Paul R. Viotti & Mark V. Kauppi, International Relations Theory: Realism, Pluralism, Globalism, 2nd ed. (New York: Mac Millan Publishing Company, 1993), p. 579.
45. روبرت جوزيف، "الدفاع والردع النووي والبيولوجي والكيميائي"، في الدفاع الجوي الصاروخي ومواجهة انتشار أسلحة الدمار الشامل وتخطيط السياسة الأمنية، تح. جاكلين ديفس، شارلز بيرى، وجمال سند السويدي (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2000)، ص 68.

46. نفس المرجع السابق، ص. 68 - 69.
47. R. J. Overy, "Air Power and the Origins of Deterrence Theory Before 1939", in Strategic Studies : A Reader, ed. Thomas G. Mahnken and Joseph A. Maiolo, (New York : Routledge, 2008), p. 139.
48. Ibid. p. 141.
49. Hans J. Morgenthau, Politics Among Nations : The Struggle For Power And Peace, 5th ed. (New York : Alfred A Knof, 1978), pp. 4-15.
50. Andrew Ilachinski, AI, Robots, and Swarms Issues, Questions, and Recommended Studies, (N. p.: CNA Analysis & Solutions, 2017).
51. Elinor Sloan, "Current and Emerging Technology in Military Robotics", In Robotics and Military Operations, ed. William G. Braun III, Stéfanie von Hlatky, and Kim Richard Nossal ([U S] : Strategic Studies Institute and U.S. Army War College Press, 2018), p. 09.
52. Ibid., p. 10.
53. Ian GR Shaw, "Robot Wars: US Empire and geopolitics in the robotic age", Security Dialogue, (2017, Vol. 48(5)), p. 459.
54. Thucydides, The History of the Peloponnesian War, Trans. by Richard Crawley (New York : E.P.Dutton and Company, INC. & London : J. M. Dent and Sons, Limited, 1950), pp. 01-06.
55. Elinor Sloan, Op. Cit., p. 08.
56. David S. Fadok, John Boyd and John Wardon : Air Power's Quest for Strategic Paralysis, (Alabama : Air University Press, 1995), pp. 23-34.
57. سان تزو، فن الحرب، تق. وت. أحمد ناصيف، (دمشق، القاهرة، لبنان: دار الكتاب العربي، 2010)، ص. 23.
58. Thucydides, Op. Cit., p. 79.
59. سان تزو، مرجع سبق ذكره، ص. 12.
60. نفس المرجع السابق، ص. 15.
61. Colin S. Gray, Strategy and History : Essays on Theory and Practice, (London and New York : Routledge Taylor & Francis Group, 2006), p. 140.

62. سان تزو، مرجع سبق ذكره، ص. 43.

63. Christopher Paul, Information Operations Doctrine and Practice: A Reference Handbook, fo. Charles A. Krohn, (London : Praeger Security International Westport, Connecticut, 2008), p. 02.

64. Ibid., p. 02.

65. Elinor C. Sloan, Modern Military Strategy : An Introduction, (London and New York: Routledge Taylor & Francis Group, 2012), pp. 85-87.

66. Christopher Paul, Op. Cit., p. 01.